الخالق والخلق

الدكتور طالب هاشم حسين الجنابي

عنوان الكتاب

الخالق والخلق

المؤلف

الدكتور طالب هاشم حسين الجنابي

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الطبعة الثانية
١٤٤٦ هـ ــ ٢٠٢٥ م

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق
ببغداد (٢٦٨٧) لسنة ٢٠٢٤

ISBN
978-9922-8958-1-9

لايجوز نسخ أو إستعمال أجزء من هذا الكتاب في أي شكل من الأشكال أو بأية وسيلة من الوسائل - سواء التصويرية أم الألكترونية أم الميكانيكية بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة او سواها وحفظ المعلومات وإسترجاعها - دون إذن خطي من الناشر.

No Part Of This Publication May Be Trans-lated, Reproduced, Distributed In Any Form Or By Any Means, Or Stored In A Data Base Or Retrieval System, Without The Prior Written Permission Of The Publisher.

عن المؤلف

- حصل على شهادته الاولى البكالوريس في الهندسة الالكترونية من جامعة كاردف - بريطانيا عام 1972 .
- حصل على شهادة الماجستير في هندسة السيطرة الذاتية من جامعة مانشستر - بريطانيا عام 1973.
- حاز على الدكتوراه في هندسة السيطرة الذاتية من جامعة مانشستر - بريطانيا عام 1976 .
- عمل مدرساً ومحاضراً في جامعات بريطانيا والعراق والجزائر وكندا في هندسة السيطرة الذاتية والذكاء الآلي .
- له براءات اختراع في حقل الهندسة ونشر بحوثاً في مجلات دورية ومؤتمرات علمية كما نشر
كتباً في هندسة السيطرة الذاتية .
- ترجم كتاب الأسس المنطقية للاستقراء للسيد محمد باقر الصدر الى اللغة الانكليزية (وهو احد اهم كتب المعرفة والتفكير الفلسفي في القرن العشرين) ، صدرت الترجمة في لندن عام 2016 . University Press of London (UPL)
- صدر له كتاب نظرية التطور الداروينية – خرافة باسم العلم ، بيروت 1989.
- صدر له بالانجليزية كتاب Clinging to a Myth, the Story behind Evolution American Trust Publication, USA – 1990.
- صدر له كتاب : نظرية التطور الداروينية نقض العلم الزائف 2024.

محتويات الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم 1

توطئة 1

ملاحظة 2

الفصل الأول: قضايا ذات اهمية 3

١-١ – الانسان وفكرة وجود الله 3

١-٢ – نظرية التطور الداروينية 3

١-٣ – أنواع الاديان 5

١-٤ – الايمان وخياراتنا 6

١-٥ – التحيز تجاه الأفكار المسبقة 7

١-٦ – أمور جدية يتم تجاهلها 8

١-٧ – عودة الى الأفكار المسبقة 9

١-٨ – العدالة 10

١-٩ – هل هناك برهان مادي؟ 12

١-١٠ – ماذا عنا؟ 12

١-١١ – اسئلة تبحث عن اجابات 13

١-١٢ – العقل المتعطش للمعرفة 14

١-١٣ – أنواع الجواب 15

الفصل الثاني: الروح والنفس 17

٢-١ – هل هناك روح؟ 17

٢-٢ – برتراند رسل والعلاقة بين العقل والمادة 19

٢-٣ – الشيء الثالث الأساسي 22

٢-٤ – معضلة الصور 22

٢-٥ – التأرجح والتذبذب 25

٢-٦ – فشل نظرية الشيء الثالث الاساسي 27

٢-٧ – العقل وحدة تصميم وبناء 34

٢-٨ – الروح والنفس 35

٢-٩ – الروح 36
٢-١٠ – النفس 36
٢-١١ – الحركة الجوهرية لصدر الدين الشيرازي 37
٢-١٢ – اندماج روح الحيمن مع روح البويضة 38
٢-١٣ – اللبنة الاساسية واتحاد الروحين 40
٢-١٤ – نظام التشغيل 42
٢-١٥ – هل نعرف جوهر وكنه المادة 43
٢-١٦ – الصور والمادة 44
٢-١٧ – عودة الى التطور 45
٢-١٨ – كيف نبرر ان الروح والنفس تخلقان من المادة 46
الفصل الثالث: الصفات الالهية 50
٣-١ – تعريف الله تعالى 50
٣-٢ – هل ان الله مخلوق؟ 51
٣-٣ – الله الحي القيوم 53
٣-٤ – الله عالم الغيب 53
٣-٥ – الله والنوم والموت 54
٣-٦ – المحرك 55
٣-٧ – خلود الانسان في الجنة أو النار 60
٣-٨ – قدم العالم والعلم القديم 60
٣-٩ – مسألة خلق القرآن 61
٣-١٠ – الخلاصـــة 61
الفصل الرابع: العدل الالهي 64
٤-١ – الخير والشر 64
٤-٢ – الشر نسبي 66
٤-٣ – الخير مطلق 67
٤-٤ – اصل الشر 67
٤-٥ – خلط وتشويش لعقول الناس 70

٤-٦ – هل أن الله على كل شيء قدير؟ 73
٤-٧ – هل لله علة؟ 77
٤-٨ – لماذا خلق الله الخلق؟ 78
٤-٩ – سوء فهم لحكمة الخالق 80
٤-١٠ – تفاهة منطق الملحدين 82
٤-١١ – صعوبة فهم حكمة الخالق 83
الفصل الخامس: لِمَنْ العبودية؟ 87
٥-١ – العبودية والعبادة 87
٥-٢ – عبودية المادة 88
٥-٣ – عبودية الانسان والحيوان والنبات 91
٥-٤ – عبودية الغرائز 92
٥-٥ – عبودية الفكر الارادي 92
٥-٦ – ضرورة العبودية 95
٥-٧ – الثواب والعقاب بعد الموت 98
الفصل السادس: الرسول (النبوة) 102
٦-١ – الرسل والانبياء 102
٦-٢ – ماهو النبي وما هو الرسول؟ 104
٦-٣ – اولي العزم 105
٦-٤ – المعجزات 105
٦-٥ – معجزة النبي محمد (ص) الخالدة 106
٦-٦ – لماذا لم يكن بمقدور النبي محمد (ص) ان يكتب القرآن؟ 107
الفصل السابع: الله (المرسل) 111
٧-١ – أسماء الله الحسنى 112
٧-٢ – الحي القيوم 112
٧-٣ – المجد والجمال 113
٧-٤ – الجوهر اللامتناهي 113
٧-٥ – ليس لله جسم مادي ولا يمكن ان تراه عين 115

٧-٦ – التوحيد هو أساس الاسلام 115
٧-٧ – فروع التوحيد 115
٥ – المعجزات 117
المصادر 119

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة

يتناول هذا الكتاب في البحث مواضيع طالما طرحها المفكرون على مر التاريخ. وتحوم حولها الشكوك وعدم الفهم، سواءً عن عمد او عن جهل. وهي مواضيع ليست سهلة الفهم. من هذه المواضيع:

- وجود الله.
- الروح والنفس.
- حاجة البشر الى كتاب مقدس.
- جهل البشر لحكمة الخالق.
- العدل الإلهي.
- معنى العبودية لله.

د. طالب هاشم حسين الجنابي
٢٠٢٥

ملاحظة

سيلاحظ القاريء انني اخترت في هذا الكتاب الرد على اراء الفيلسوف الإنكليزي الملحد برتراند رسل (١٨٧٢ – ١٩٧٠ م)، ولم اتطرق الى آراء غيره من الفلاسفة الملحدين. السبب في ذلك ان برتراند رسل كان ملحدًا بارزًا ومثل في وقته فلسفة الالحاد في اوربا. وبالنسبة للملحدين لا زالت آراؤه سارية المفعول الى وقتنا الحاضر. فقد كان برتراند رسل فيلسوفاً واكاديمياً وكاتباً وخبيراً بالمنطق والرياضيات، ومؤسس الفلسفة التحليلية، وهي الفرع المهيمن للفلسفة الغربية، ومؤسس المنطقية وهي الرأي القائل بأن الرياضيات يمكن اختزالها إلى المنطق البحت. وكان مادياً في آرائه الفلسفية، ويعتقد أن العالم المادي هو الحقيقة الوحيدة وأن كل شيء، بما في ذلك الوعي والظواهر العقلية، يمكن تفسيرها في نهاية المطاف من خلال العمليات الفيزيائية. ومساهمات رسل في المنطق ونظرية المعرفة وفلسفة الرياضيات جعلته واحدًا من أبرز فلاسفة القرن العشرين.

حصل رسل على وسام سيلفستر من الجمعية الملكية البريطانية عام ١٩٣٤، ووسام دي مورغان من جمعية لندن للرياضيات في نفس السنة، وجائزة نوبل للآداب عام ١٩٥٠.

الفصل الأول: قضايا ذات اهمية

١-١ – الانسان وفكرة وجود الله

منذ فجر التاريخ والانسان يناقش فكرة وجود خالق مهيمن على الكون. وعند ملاحظة الذكاء الذي يتجلى فينا وفي كل شيء حولنا، نرى ان أولئك الذين يؤمنون بالله يتساءلون في نقاشهم بصورة رئيسية عن هذا الذكاء ومن اين جاء، ومن اين جاء كل شيء آخر. فيستنتجون انه لابد وان يكون هناك خالق. والذين لا يؤمنون بالله، يقولون انه ليس من حاجة لخالق المادة فالمادة نفسها في عرفهم خالدة وتحتوي على صفة نموها وتطورها؟ ومنهم من يجادل بالقول، اذا كان الله خلق كل شيء، فمن خلق الله؟ وبين هاتين المدرستين الفكريتين، لم يصل الجدال الى نتيجة، وربما سيستمر الى الابد.

١-٢ – نظرية التطور الدارونية

في عالمنا المعاصر هناك اناس كثيرون لايؤمنون بالله. واولئك الذين يؤمنون بالله نادرًا ما يمارسون أيًا من معتقداتهم، وبدلاً من ذلك فانهم يعيشون حياة مادية لا تختلف كثيراً عن الذين لا يؤمنون بالله. والسؤال هو: كيف غيرت نظرية التطور الدارونية تفكير الناس وحياتهم؟

وبالنسبة للاوربيين، وفي غياب تعاليم الهية اخرى (غير المسيحية) فان البديل كان رفض فكرة الله والاتجاه الى عالمهم الخاص، عالم المادية. حيث ان مفهوم المادية، وان كان موجوداً، الا انه ازدهر عند مجيء كارل ماركس (١٨١٨-١٨٨٣) ونظريته الشيوعية، وشارلس دارون (١٨٠٩-١٨٨٢) ونظرية التطور، اللتان ظهرتا في نفس الوقت تقريباً.

وظهور فكرة تطور الانسان وباقي الانواع بدلاً عن فكرة الله كانت خطوة طبيعية في تفكير الانسان الاوربي بعد ترك الكنيسة والله، لان السؤال الذي يطرح نفسه في هذه الحالة هو: اذا لم يخلقنا الله فمن اين اتينا؟ وليس هناك جواب عدا القول اننا جئنا من الارض التي تحتنا.

ولكن كيف؟

لابد واننا بدأنا صغاراً واقل ذكاءً. وهذا المنطق هو استدلال طبيعي لهذه الطريقة في التفكير، لانه ليس من المعقول ان نتصور باننا ظهرنا فجأة بشكلنا الحاضر. واذا كنا قد جئنا من الارض، فلابد واننا بدأنا صغاراً ثم تطورنا. وهنا حققنا الفوز بالجائزة الكبرى: التطور. هذه الكلمة السحرية. وهناك مشاهدات كثيرة ساعدت فكرة التطور الجديدة هذه. وفيما اذا كانت صحيحة ام لا فليس هذا هو المهم. كل ما عليك فعله هو النظر إلى الأنواع الأخرى من الاحياء. وليس مهماً انك تحصل على البرهان القطعي فوراً. فقد تم طرح مفهوم التطور، وبعدها بدأ دارون والتطوريون يبحثون للعثور عن الدلائل للبرهنة على ادعاءاتهم. وهذه هي الكيفية التي اقنع بها التطوريون انفسهم، وبالخصوص عندما اصبحوا متأكدين (بموجب ايمانهم) ان الله والمسيح هما تفاهات الماضي. ولا توجد طريقة اخرى لتقدم الفكر الانساني غير هذه. فقد وصلوا الى نهاية مسدودة مع المعتقدات الكنسية. وبذلك كان لابد من اختراع مفهوم التطور. فالتوجه نحو السماء لم يعط الجواب. فأدار الانسان بنظره الى الاتجاه الوحيد الممكن وهو الارض. فجاء دارون في الوقت المناسب، ومعه بدأت حقبة جديدة من التفكير الذي ادى الى الالحاد. فقد اخرج الذين لا يؤمنون بالله من النهاية المسدودة وأعطاهم املاً جديدا لمشكلة اصل الانسان. ولكنه لم يجب على السؤال تماماً. وبالتأكيد فانه ساهم مساهمة فعالة في نشر الالحاد على نطاق واسع. ومما ساعد في رفض الكنيسة والتوجه الى الالحاد هو تحالف الكنيسة مع السلطة واعطائها صفتها القانونية، وكانت هذه السلطة مطلقة وغاشمة ايضاً، فكانت غالبية الناس ترى ان الأقلية تتحكم بالسلطة وتشاركها الكنيسة تَرَفَها.

لقد تم كتابة ومناقشة الكثير حول ما اذا كنا قد جئنا الى هذا العالم بواسطة التطور او الخلق. وتمت محاولة اظهار التطور على انه حقيقة علمية، بينما الخلق فكرة متخلفة من الماضي وليست علمية. ومن الذي يستطيع ان يخالف العلم؟ فالعلم، كالرياضيات والفيزياء والكيمياء والهندسة والطب الخ، كان وراء كل هذا التطور التكنولوجي الذي نراه كالسيارات والطائرات والمكائن الضخمة والحاسبات والانترنت الخ. ولذا اذا كان التطور علمياً فلابد ان يكون صحيحاً ايضاً. ولكن.... السؤال هو:

هل ان التطور الداروني علمي بهذا الاعتبار؟ ام انه يُعرض للناس على انه علمي...؟ وهل هو علم زائف ام اصيل؟ أسئلة مفاجئة، اليس كذلك؟

وماذا لو كان بإمكاننا ان نبرهن الخلق عن طريق العلم، وان التطور علم زائف... وانه ليس علمياً على الاطلاق. ومبني على الكذب والتلفيق وعلى الآراء الشخصية والادعاءات الكاذبة المتعمدة باسم العلم؟

والذين يؤمنون بالتطور واثقون من أنها قضية علمية. ولكنهم لم يتحققوا من ذلك بأنفسهم. ومثل هذه المعتقدات البشرية شائعة جدًا. لقد تم تصوير الفكرة للناس بان ما لانهاية له من الصدف العشوائية (واؤكد هنا العشوائية) حدثت، واستمرت بالحدوث لإيجاد الأنواع الحية على الأرض: الانسان والحيوانات والنباتات والحشرات والطيور والاسماك الخ. دون ان يتكلموا عن الزمن الذي احتاجته هذه الصدف العشوائية من الزمن للحدوث؟ او الضرورة وراء حدوثها؟ ولم يذكر احد انه حتى الصدفة ذاتها تحتاج الى سبب للحدوث، ولم يتكلم احد لماذا كانت هناك أسباب ومن اين أتت هذه الاسباب ومن اين انبثقت الصدفة واسبابها الى الوجود. لاحظ ان مفهوم السببية هو شيء لامادي. ولماذا ان العشوائية انتجت أنظمة عالية التطور والتنظيم والذكاء؟ ومن اين اتى الوعي عند الانسان الذي هو لامادي؟ ولماذا هذا العدد الهائل من الاحياء؟ ولماذا هذه الاختلافات الشاسعة بين الاحياء، علماً ان معظمها يعيش تحت نفس الظروف الطبيعية؟ ومع كل ذلك فان الناس يصدقونها ويعتبرونها علمية.

١-٣ – أنواع الاديان

تنقسم الأديان الى ثلاثة أنواع من ناحية الاعتقاد والعمل. بعض الأديان يكتفون بالاعتقاد، كالمسيحية التي تعتقد ان الاعتقاد بان عيسى ابن لله والاعتقاد بالثالوث يكفي ان تدخل الجنة، ولا تعطي أهمية كبيرة للعمل بالرغم من انها تدعو له. ولكن المسيحي اذا عمل اعمالاً سيئة سينقذه المسيح لانه يؤمن انه ابن الله وانه جاء الى الأرض ليفتدي المؤمنين بنفسه، فقد ضحى المسيح بنفسه لكي يغسل ذنوب المؤمنين. وبعض الأديان تؤمن بالعمل الصالح فقط كالبوذية. ولا تعطي اهتماماً للايمان. وكما هو واضح فانها دعوة لنكران الله واوامره، والايمان بعدم

ضرورة الالتزام بها.

اما الإسلام فانه دين يؤمن بالايمان والعمل معاً، ولا يكفي أي منهما لوحده، كما يذكر القرآن الكريم. فالمسلم يجب ان يؤمن بما انزل الله في القرآن الكريم ويجب ان يعمل بأوامر الله التي فيه. ويجب ان تكون النية خالصة لله، ولان الله امر بها، أي التسليم الكامل لإرادة الله واوامره. فالعمل يكون لله، وله فقط، وليس لأنفسنا، او للشهرة او لأي غايات واهداف دنيوية او اي سبب اخر. وكقضية مركزية بالنسبة للاسلام فان الايمان وحده لايكفي ولا يفيد الفرد شيئاً، لان المؤمن في هذه الحالة يعرف أوامر الله ولكنه لايطبقها ولا يذعن لارادة الله. واذا عمل الفرد عملاً صالحاً، ولكن ليس لله، وانما لغايات واهداف دنيوية، او للشهرة او ما شابه، فان العدالة تقضي ان يتوقع ذلك الفرد الثواب ممن عمل لأجله.

١-٤ – الايمان وخياراتنا

سنتطرق الآن الى اهم القواعد الثلاث في حياتنا، والتي يغفل عنها معظم الناس، ولا يفكرون بها او يعتبرونها مهمة:

1. **القاعدة الأولى:** عندما لاتؤمن بالله فانك تعتقد ان لديك خياراً في ذلك. وبطبيعة الحال انت تمتلك الاختيار في ذلك. ولكن ما لا تشعر به هو انك عندما تختار عدم الايمان بالله فان اختيارك هذا هو اختيار سيء، وليس اختياراً جيداً. وفي الحقيقة انك تقوم بأسوأ اختيار في حياتك (كما سنرى لاحقاً).
2. **القاعدة الثانية:** اذا كنت تؤمن بالله فقد تعتقد أنك تقدم معروفا لله. الا ان الله موجود بمعزل عن جميع أنواع الوجود الأخرى التي هي خلقه، وبالتأكيد فانه موجود بدونك. ولذا اذا كنت تؤمن بالله فانك تقدم لنفسك معروفاً، وليس لله (كما سنرى لاحقاً). ولايؤثر ايمانك على الله ولكنه يؤثر عليك.
3. **القاعدة الثالثة:** لا يكفي انك تؤمن بالله ولكنك مجبر ان تتبع أوامره وليس لك خيار في ذلك. والسؤال الذي يطرح نفسه: هل لله أوامر، ام انه خلق الانسان وتركه لمصيره؟ وفي هذه الحالة، من هو المسؤول عن الظلم الذي تعج به المجتمعات الإنسانية على مر التاريخ؟ واذا كان لله أوامر، ما هي هذه الاوامر وأين نجدها؟ وهذا شيء يجب ان

يفكر به أولئك الذين يسمون انفسهم اللادينيين.

١-٥ – التحيز تجاه الأفكار المسبقة

يخبرنا القرآن الكريم عن النبي محمد (ص) انه عندما دعا قومه الى عبادة الله رفضوا الفكرة، وقالوا انهم لا يتركون دين آبائهم. وقالوا له وللانبياء والرسل من قبله بكل تكبر: من تكونون لكي تدعون انكم تقول الحق؟ فقال لهم الرسول: وماذا لو جئتكم بشيء افضل؟ قال تعالى في وصف ذلك: "بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ." سورة الزخرف، الآية ٢٢. "وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ.- سورة الزخرف، الآية ٢٣. " قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ۖ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ." سورة الزخرف، الآية ٢٤. لقد كان التحيز لأفكارهم المسبقة تمثل حاجزاً بين انبياء الله وبينهم. وليس هناك حدود لما يمكن ان يفعله التحيز، فقد دفع بقوم إبراهيم الى ان يرموه في النار. ولم يكن مهماً سواءً كان على حق ام لا.

ويمكن ملاحظة نفس الظواهر عبر التاريخ، وفي وقتنا الحاضر ايضاً. فالناس لا يعطون انفسهم الوقت اللازم للتفكير في قضايا الدين، بينما هي استثمارنا الوحيد لما بعد الموت. وبالرغم من علمنا اننا سنموت حتماً، فاننا لا نستثمر للموت شيئاً. والأكثر من ذلك اننا نعتبر انفسنا اذكياء. وقد يكون مناسباً هنا ان نذكر ما قاله احد الحكماء: اذا كنا نعمل طوال حياتنا على الأرض لكي نعيش سبعين او ثمانين سنة في افضل الأحوال. فكم يجب ان نعمل لحياتنا الأبدية في الآخرة؟

كيف يمكننا التخلص من تحيزاتنا؟ بالتأكيد ليس بسهولة، كما يعكس ذلك تاريخنا الإنساني. ونظرياً فمن المفترض ان يكون الفلاسفة والمفكرون أقل الناس تحيزاً في المجتمع. ولكن الملاحظ ان الفلاسفة والمفكرين الاوربيين عندما يذكرون الفلسفات القديمة دائماً يذكرون الفلاسفة اليونانيين فقط. وهو مثال على التحيز اللاواعي، والذي قد يكون متعمداً احياناً.

كيف يمكننا أن نكون موضوعيين في نظرتنا إلى رأي الآخرين؟

اولاً: يجب ان نكون موضوعيين حقيقيين.

ثانياً: علينا ان نعرف ان الحقيقة واحدة، واي ادعاء آخر لا يمكن ان يكون حقيقة ايضاً لأن ذلك سيتضمن تناقضاً. وأولئك الذين يقولون ان الحقيقة نسبية ليسوا على حق. فهم يريدون القول ان ما يعتقده الفرد حقيقة فهو الحقيقة بالنسبة له. وهذا خطأ جسيم الغرض منه تضييع الحقائق. فلو انك رأيت ذئباً واعتقدت انه كلب، فهل يصبح الذئب كلباً لأنه كلب بالنسبة لك؟ ام انك مخطيء لأنك لا تعرف الحقيقة، وهي انه ذئب وليس كلباً؟

الثالث: نحن بحاجة إلى تجهيز أنفسنا بالمعلومات الصحيحة والطريقة الملائمة في التفكير.

الرابع: اننا يجب ان نمتلك الشجاعة لقبول ما هو صحيح ورفض ما هو خطأ حتى وان كان ذلك لايتفق مع إيماننا وميولنا المسبقة.

١-٦ – أمور جدية يتم تجاهلها

ومهما تكن خلفيتنا، فاننا جميعا سنواجه الموت بدون ادنى شك. وبعد الموت لا فرق ماذا كان نوع اعراقنا أو ثقافاتنا. والسؤال المهم هو: ماذا سيكون بعد الموت؟ وهذا السؤال ميتافيزيقي (لامادي) لكثير من الناس في وقتنا الحاضر، ولذا يتجاهلونه كلياً. ويمضون مشغولين في حياتهم، فالموت يحدث للآخرين وليس لهم. ولكن لو كان هناك شيء بعد الموت فانهم سيواجهون، وبدون ادنى شك، مشكلة كبيرة. والمشكلة الكبيرة الأخرى ان الموت رحلة باتجاه واحد، وليس هناك رجعة. والانسان دائماً يخاف من المجهول، خصوصاً الموت. ولو كان هناك شيء بعد الموت، فبالتأكيد نريد اخباراً عنه. وهذا بالتأكيد سيكون من مصدر واحد لاغير، وهذا المصدر هو قوة خارقة للطبيعة، وبواسطة نستطيع فهمها.

وكما هو معلوم فان وسائل فهمنا للامور محدودة في عالمنا، ولا يمكننا ان نخترق حاجز العالم الآخر لنرى ماذا هناك. ونحن محصورون في عالم حواسنا. الا اننا ايضاً نملك آلة من نوع آخر: العقل. وآلة العقل هذه لاتستطيع اختراق الحواجز الى العالم الآخر ايضاً، ولكنها اذا استخدمت بشكل صحيح فانها تمتلك القابلية لمعرفة وجود ذلك العالم الآخر. الا ان التفاصيل، إن وجدت، لايزال يتعين نقلها إلينا بوسائل أخرى. واذا كنا قلقين حقًا بشأن ما قد يحدث لنا بعد الموت، فعلينا ان نتفحص المسألة بكل جدية. فلو كان هناك بابان، على سبيل المثال،

وطلبنا من شخص ما ان يختار احدى البابين ويفتحها. وكانت احدى البابين تؤدي الى حديقة غناء والأخرى الى اسود جائعة. فكيف يكون حال هذا الشخص وشعوره لمعرفة أي البابين يختار؟ اليست هذه بالضبط قصة الموت؟ اليس كلنا سنموت ونجابه مصيراً مجهولاً؟ وقد يجادل البعض بانه ليست هناك أبواب تفتح عند الموت. ولكن هل يستطيع هؤلاء ان يكونوا متأكدين من ذلك؟ وهل يستطيعون ان يثبتوا دون أي شك اننا سنختفي الى لاشيء عند الموت؟ اعتقد ان ذلك ليس سوى ظن، ولا يغني الظن من الحق شيئاً.

ومن المفارقات أن نفس الشخص الذي يمارس اقصى انواع الحذر عندما يقترب من منحني وهو يسوق سيارته على الطريق السريع لانه لا يرى ما وراء المنحني الذي هو على بعد بضعة امتار منه فقط، يعطي نفسه الحق في إعطاء كل التأكيدات انه ليس هناك شيء بعد الموت. واذا كانت هذه هي الحالة، وهي كذلك، واذا كنا نهتم بمعرفة الحقيقة، وهو ما يجب ان يكون حالنا، لذا علينا ان نعطي الموضوع ما يحتاجه من الجهد والوقت. ان أسلوب حياتنا الصاخبة، واللهث وراء الأشياء المادية تشغل جل تفكيرنا وجهودنا. ولا يبقى لدينا وقت لقضايا كتلك التي تخص الحياة بعد الموت. ولكن الحق يقال انه من الجهل تجاهلها تماما ايضاً. فعندما تكون وحيداً في ليلة صيف تحت السماء الصافية، انظر الى النجوم وتحسس كم انت وحيد في الحقيقة. فالانسان ضعيف جداً يؤلمه الشيء البسيط.

١-٧ – عودة الى الأفكار المسبقة

عندما نفكر بقضية ما، وبالخصوص قضية الحياة بعد الموت، فاننا، ومرة أخرى، نجابه تحيزاتنا. فالفرد الذي يعتقد اننا جئنا عن طريق تطور المادة سيجادل بان الله لم يخلق ادم وحواء، ويرفض فكرة وجود الله مهما كان مصدرها. وبطبيعة الحال فان هذا ليس السبيل الصحيح للمضي في التفكير. فنظرية التطور لم يتم قيام البرهان العلمي القطعي عليها كلياً، بل كانت ولازالت نظرية مبنية على الافتراضات والآراء الشخصية والاحتمالات الظنية والكذب، بالرغم من انها تُعرض على الناس على أساس انها حقيقة علمية. ولذا يجب إعطاء قضية الخلق نفس الاهتمام الذي يعطى لنظرية التطور، او اكثر.

ومن المهم ان ندرك ان البحث عن الحقيقة مهما كانت، فان علينا محاولة اتباع نهج الخطوة خطوة. وانا لا اتظاهر بأنني سافعل ذلك في هذا الكتاب، لان هذا يحتاج الى اكثر من كتاب واحد، وخصوصاً بوجود الأيديولوجيات الكثيرة في وقتنا الحاضر. ومع ذلك فان هذا النهج يبقى الطريقة الوحيدة الصحيحة. واذا لم نتمكن من تفسير خطوة ما فلا يجوز القفز الى خطوة أخرى ابداً، وهو ما يفعله معظم الناس دون شعور منهم. لان هذه القفزة قد تكون الفرق، كل الفرق، بان يبقى الفرد على الخط الصحيح او ينحرف. والمشكلة تكمن في ان هذه القفزة تعتمد على تصور الفرد فيما هو صحيح، والذي بدوره يكون متأثراً ومتحيزاً بموجب المفاهيم السابقة لديه عن الأشياء.

لماذا نتكلم عن التحيز؟

السبب هو ان معظم الناس يلاقون صعوبة في فهم الآراء الأخرى التي لا تتفق مع خط أفكارهم، او لاتتفق مع القيم التي ورثوها من مجتمعهم، او انهم لم يسمعوا بهذه الآراء من قبل، او ان هذه الآراء تأتي من ثقافات أخرى.

ونتيجة لذلك ينشأ الصراع. فكل فرد يتصور انه الصحيح وانه على حق. والسبب الوحيد لهذا الوضع هو التحيز. وفي رأيي المتواضع فانا اعتقد اننا لايجب ان نعلق اهتماماً كبيراً للنقاش والجدال بين مدارس الفكر المختلفة، سواء كانت هذه النقاشات مدفوعة بدوافع شخصية أو مواقف جدلية محضة. وفي الحالة الأخيرة فانها ستكون مضيعة للجهود والوقت. ولذا يجب علينا أن نهتم بالعدالة، لان العدالة هي الحقيقة.

١-٨ – العدالة

ماهي العدالة؟

العدالة هي إعطاء الشيء حقه، لا اكثر ولا اقل. الطريق الى العدالة اذن ينتهي بالوصول الى ما هو صحيح ومن هو صاحبه. ولكن ماهو الصحيح؟ ومتى نعتبر شيئاً ما صحيحاً؟ وقبل الاجابة على هذه الاسئلة المهمة يجب ان نترك تحيزاتنا وراءنا ونبدأ بداية جديدة باستخدام قوانين

العقل الأساسية، والبديهيات العقلية الأولية. ولعل هناك من يقول ان المنطق يختلف من شخص لآخر اعتماداً على خلفية الناس وثقافاتهم. الا ان هذه مغالطة مشهورة. فالمنطق، اذا لم يؤثر عليه دافع سوى الوصول الى الحقيقة، سوف لن يختلف من شخص لآخر. فالمنطق هو وسيلة وآلة عقلية. إذا اعطيناه معلومات خاطئة، نحصل على نتائج خاطئة.

عقل الانسان هو جزء من الكون الذي تسوده العدالة. ويظهر تحكم هذه العدالة على شكل القوانين الطبيعية التي تنظم كل جزء من اجزاء الكون. وأحد هذه الأجزاء هو عقل الانسان الذي هو احد الأجزاء الراقية والمتطورة. وبطبيعة الحال فان عقل الانسان العادي معرض الى معلومات مضللة، اما الفلاسفة الحقيقيون فانهم يبحثون عن الحقيقة دائماً. و لذا فان الفلاسفة يتحملون مسؤوليات كبيرة في مجتمعاتهم، وتجاه البشرية بصورة عامة. والفلسفة ليست نزهة من الخيال، ولا للعب بعقول الناس.

وكلما اقتربنا من الحقيقة (حقيقة أي شيء) نكون اكثر علماً وأفضل تجهيزاً، ويكون من الصعب خداعنا. والمشكلة الرئيسية في البحث عن حقيقة شيء ما هي الحقيقة نفسها (عن ذلك الشيء)، بعيداً عن أي شيء آخر.

كيف نعرف ان هناك جنة ونار؟ فلا توجد طريق لرؤيتهما. ولكن اذا لم نستطع رؤية شيء فهل هذا يكفي بان لانؤمن به؟ بالطبع كلا. فنحن نؤمن بأشياء كثيرة لا نستطيع رؤيتها. وعلى سبيل المثال، نحن نؤمن بوجود الكهرباء مع اننا لا نراها. لماذا؟ الجواب هو لأننا نرى تأثيرها. وكيف نعرف ان الاجرام السماوية تتكون من نفس مكونات الكرة الارضية؟ الجواب لان احد الأشخاص اخبرنا.

وماذا لو قلنا ان احداً اخبرنا بوجود الجنة والنار؟ فهل هناك من اقنعنا انه لا يوجد شخص كهذا؟ وهل حقاً سنصدق ذلك؟

واذا اردنا ان نضع بعض الأسس والقواعد لما هو صحيح او خطأ، هل نستطيع ان نتوصل الى اتفاق على ذلك؟ ام ان إرادة القوي والحاكم سوف تسود دائما؟وهل ان الصحيح والخطأ يبقيان نفسهما، ام انهما يستمران بالتغير كلما تغيرنا نحن، او تغيرت إرادة ومصلحة القوي ؟ واذا استمر الصحيح والخطأ بالتغيير، من الذي يستطيع التأكد ان التغيير سيحدث بالطريقة المناسبة ولا ينزلق إلى الفوضى؟ ولربما الى الاتجاه المعاكس ليناسب مصلحة القوي.

ان نظرة واحدة الى تاريخ الانسان تخبرنا بقصة معاناة البشرية المأساوية بسبب مصلحة الاغنياء والاقوياء. ولم يستطع الانسان الى التوصل الى القوانين والأعراف العادلة لحفظ الضعفاء من الاقوياء مطلقاً. وعلى مستوى المجتمعات او الافراد لم يستطع الانسان ان يطبق ابسط قوانين وقواعد الرحمة والاهتمام بالضعيف. والسبب في ذلك ان الانسان ليس مخلوقاً مثالياً. وبالتعريف، فان المخلوق غير المثالي لا يستطيع ان يصل الى قوانين واعراف تشمل كل الحقيقة، وتحافظ على حقوق الناس لجميع الازمنة.

١-٩ – هل هناك برهان مادي؟

عندما يدعي الماديون اننا خلقنا من العدم وسنرجع الى العدم، فهل لديهم اثبات مادي يمكن قياسه او تحسسه مادياً لهذا الادعاء؟ واذا لم يوجد مثل هذا الاثبات المادي، اليسوا هم يستخدمون افتراضاً لامادياً لاثبات المادي، بينما ينكرون وجود اللامادية؟ أليس هذا هو الخداع بعينه؟ كيف يقولون انه لا يوجد شيء وراء المادة وبنفس الوقت يستخدمون حجة ميتافيزيقية (لامادية) لتبرير ادعائهم؟ اليس هذا بحد ذاته اثبات لوجود اللامادة؟

يقول غودمان في كتابه[1] "سر التكوين": "المادية البحتة، كما نفهمها، لا تكفي لتفسير حالات التخاطر والاستبصار الظاهرة، حيث يتم الحصول بطريقة ما على معلومات دقيقة وقابلة للاختبار بواسطة المخ بدون مساعدة التدخلات المادية ".

١-١٠ – ماذا عنا؟

قد نفكر أيضًا في الأسئلة التالية: من نحن؟ وماذا نحن؟ من اين اتينا والى اين نحن ذاهبون؟ وماهي الحكمة من هذا المشروع الضخم الذي هم "نحن"؟ هل نحن نتاج مليارات الصدف العشوائية العمياء التي حدثت، واستمرت بالحدوث عشوائياً، لتوليد وتحسين هذا النظام المتطور، الذي هو نحن والحياة التي حولنا، كما تدعي نظرية التطور الدارونية؟ ام اننا خلقنا من قبل خالق، ولغاية معينة؟ لماذا نشعر بالألم

[1] انظر المصدر 2

واللذة، وبالحزن والسعادة، وبالحب والكره؟ لماذا نشعر باي شيء كان؟ وابتداءً، لماذا لدينا شعور؟ ولماذا نحب بعض الأشياء ونكره أشياء" أخرى؟ لماذا نفكر؟ ولماذا لدينا آراء عن الأشياء؟ لماذا نمتلك الوعي؟ ما هو الوعي؟ كيف ظهر الوعي الى الوجود، ومن اين جاء؟ هل تفسر نظرية التطور الدارونية كل ذلك؟

١-١١ – اسئلة تبحث عن اجابات

كانت مسألة الله والروح، ولا زالت، موضوعاً طال الجدال فيه بين المدارس الفكرية المختلفة. وهذا الجدال سببه سوء الفهم لبعض المسائل المتعلقة بمفاهيم الوجود العميقة. والنقطة الأساسية في الاختلاف هي العلاقة بين الروح والمادة.

في هذا الكتاب سوف نحاول توضيح هذه المسائل، خاصة وأننا الآن نعرف من خلال النظرية النسبية أن الزمن متغير، وأنه مجرد جزء آخر من عالمنا.

والقضية بالنسبة للمفكر الأوربي والمفكر المادي الملحد ترجع الى نفس المشكلة التي صادفها غيره قبل بضعة قرون، والذين عندما لم يستطيعوا حلها تركوا فكرة الله والتجأوا الى فكرة التطور لعلهم يجدون الجواب هناك. وتطرح الأسئلة القديمة نفسها مرة أخرى:

- من الذي خلق الله؟
- وهل يستطيع الله أن يميت نفسه؟
- وما معنى ان الله على كل شيء قدير؟
- وما هي الروح؟
- وكيف تعمل؟
- وغير ذلك من الأسئلة.

في الفصول القادمة، سوف نحاول الدخول في هذه الأسئلة واسئلة أخرى بعمق اكبر، للاجابة عليها والانتهاء بتوضيح صورة أفضل عن الحقائق التي تخص الروح، والحياة بعد الموت، والله الخالق للكون.

١-١٢ – العقل المتعطش للمعرفة

يمتلك الانسان عقـلاً مفكراً، وهذا العقل متعطش للمعرفة ويحمل رغبة جامحة لمعرفة ما يحيط به وما يراه حوله. وتنقسم المعرفة التي يحصل عليها العقل الى نوعين بصورة عامة. المعارف الأولية أو الاساسية، وهي المعارف التي يتلقاها الانسان عن طريق حواسّه كتحسس الحرارة وشم الروائح الخ. والمعارف الثانوية، وهي المعارف التي يركّبها العقل باستعمال المعارف الأولية.

ويولّد العقل مفاهيم جديدة تقع خارج عالم الحواس بالرغم من أنها قد تكون مستقاة من المعاني التي تجلبها اليه الحواس. وكمثال على ذلك، اذا سخنا الماء الى (100) درجة مئوية فان الماء سيغلي. وقد نتحسس هاتين الظاهرتين (التسخين والغليان) بتكرار كثير ولكن أحاسيسنا لن تستطيع معرفة ان التسخين هو سبب الغليان، وانما العقل هو الذي يستنتج ذلك. ولكي يحصل على هذه العلاقة السببية فان العقل يجب أن يسأل فيما اذا كانت هناك علاقة بين التسخين والغليان أولاً. فيسأل: لماذا تتبع هاتان الظاهرتان احداهما الأخرى في كل مـرة؟ أو قد يسأل: هل هناك علاقة بين الظاهرتين؟

وما نريد توضيحه هنا هو انه بمعزل عن المعلومات الأولية التي نحصل عليها بواسطة حواسنا فان جميع المعلومات الأخرى يركبها العقل بواسطة الأسئلة، التي تظهر على شكل تفكير في كثير من الأحيان.

وقد يقول البعض ان العقل سيعرف أن سبب الغليان هو التسخين لأنه سيرى ان الظاهرتين تتبع احداهما الأخرى. والجواب على ذلك هو ان العقل في هذه الحالة سيتمكن من رؤية ظاهرتين منفصلتين تتبع احداهما الاخرى، ولكنه لا يتمكن من استنتاج ان احداهما تسبب الأخرى دائماً. لذا فانه سوف لن يستنتج أن الغليان يتبع التسخين دائماً. ولكنه يستطيع استنتاج ذلك بعد ان يسأل نفسه: لماذا يتبع الغليان التسخين؟ وما هي العلاقة بينهما؟

وقد لا يسأل العقل هذه الأسئلة جهرة، ولكنه يسألها بصمت أو بمفهوم ادراكي. فالعقل يسأل ولذا نقول انه توّاق للمعرفة، ثم يجمع المعلومات الأولية أو السابقة ويربط بينها للحصول على جواب السؤال. وبهذه الطريقة بنـى الانسان معرفتة ووصل الى ما وصل اليه من العلوم والتكنولوجية.

والحديث الذي يظهر وكأنه ليس جواباً على سؤال هو في الحقيقة

جواب على سؤال ضمني. فنقول أن عمروا يخبر زيداً بموضوع كذا بالرغم من ان زيداً لم يسأل عمروا عن الموضوع. ولكن عمروا يخبر زيداً لكي يكون الموضوع معلوماً عند زيد فيما لو أراد زيد أن يعرف، أي فيما لو سأل، لان رغبته او احتياجه لمعرفة الموضوع هو السؤال. ووضع معرفة الموضوع عند زيد عبارة عن خزن المعلومات في ذهنه لكي يكون بامكانه استخراجها والاستفادة منها عند الحاجة اليها، أو عند الرغبة فيها، أي عند السؤال.

لذا يتضح أن معظم، ان لم تكن كل، المعارف الثانوية يتم الحصول عليها فقط بعد طلبها، أي السؤال عنها، ثم معرفة الجواب على السؤال. والجواب قد يكون كلمة واحدة أو كتاباً كاملاً من الشرح والتفصيل. فالسؤال هو الرغبة في الحصول على المعرفة والجواب هو الحصول على المعرفة المبتغاة.

١-١٣ – أنـواع الجـواب

للحصول على المعلومات المعقدة التي نتعامل معها في حياتنا الاعتيادية، هناك ثلاثة أنواع من الأجوبة الممكنة لأي سؤال يُطرح، ونوع الجواب المطلوب يعتمد على نوع السؤال. وهذه الأنواع هي:

1-الجواب المباشر

أي اثبات الشيء المطلوب مباشرة، أو معرفة المجهول بصورة مباشرة، كأن تسأل شخصاً عن اسمه فيخبرك.

2-اثبات صحة أو خطأ العكس أو النقيض

وعندها نحصل على النتيجة أو الجواب لسؤالنا بأنه خطأ أو صحيح تبعاً لصحة أو خطأ العكس أو النقيض. مثال ذلك انك اذا أردت أن تبرهن أن زوايا المثلث تساوي 180 درجة فانك تفرض أنها ليست 180 درجة، وهو العكس، فتصل الى نتيجة خاطئة لا يمكن تصحيحها الا بفرض أنها 180 درجة.

والمنطق يجمع بين (1) و (2) أعلاه لأنه سلسلة من الاحتمالات وكل احتمال سؤال وجواب. كما أن عملية الاستقراء التي يقوم بها الذهن وعملية قبول الاحتمالات أو رفضها عبارة عن سلسلة من الأسئلة

والأجوبة.

3-اثبات أن السؤال خطأ

أو ان في السؤال خطأ منطقياً أو ضمنياً كأن يحمل نقيضه فيه أو يحمل في طياته افتراضات غير مقبولة أو غير مسلَّم بـها، أو افتراضات تعارض جوهر وتعريف الموضوع المسؤول عنه. ولذا فليس هناك جواب على سؤال كهذا لأنه ليس هناك سؤال [مثلاً، ان تقول لماذا 2 اصغر من 1]. وذلك لأننا عندما نسأل سؤالاً ونتوخى جواباً يجب أن يكون هذا السؤال سؤالاً مقبولاً ومنطقياً ولا يتعارض مع تعريف الموضوع الذي نبحث فيه، والا فانه ليس سؤالاً لأنه سوف ينافي قاعدة طلب المعرفة ويصبح تبذيراً للوقت والجهود ويصبح عبثاً وهذا مرفوض.

فالجواب تفسير لشيء مبهم يطرح في السؤال، واذا لم يكن هناك سؤال فليس هناك جواب. ومثال ذلك اننا اذا عرّفنا الذبابة بانها حشرة لاتتكلم، ثم سأل سائل هل الذبابة الفلانية تتكلم اللغة العربية، فليس هناك جـواب على هذا السؤال، لأن في هذا السؤال خطأ منطقياً بموجب التعريف ويفترض في طياته أن هناك احتمالاً بأن الذبابة تتكلم وهو ما يعارض التعريف حيث أن الذبابة لا تتكلم أصلاً. ولو تصورنا أننا نضع المعلومات التي تخص تعريف الذبابة في حاسبة الكترونية، وضمن هذه المعلومات نضع أن الذبابة حشرة لا تتكلم. فماذا سيكون جواب الحاسبة للسؤال السابق؟

لابد وانه سيكون جملة موضوعة في برامج الحاسبة مثل "السؤال غير منطقي"، لأنـها سوف لن تجد ما تجيب به على السؤال. واذا ادعى السائل بأنه لا يتضمن في ذهنه هذه الفرضية متعمداً، فنقول أن السؤال يحمل هذه الفرضية سواءً عرف السائل ذلك أم لم يعرف، وان حمل السؤال لهذه الفرضية الضمنية يجعله في قائمة الأخطاء المنطقية التي لا يمكن قبولها من قبل العقل السليم.

هذا التفصيل لأنواع السؤال والجواب يفيدنا في الفصل القادم في اثبات عدم منطقية الأسئلة التي تطرح بخصوص كينونة الله تعالى.

الفصل الثاني: الروح والنفس

- هل هناك روح؟
- ماهي الروح؟
- كيف تعمل الروح؟
- ما هي النفس؟
- هل النفس تختلف عن الروح؟

٢-١ – هل هناك روح؟

عندما تتحول المادة الى كائن حي فانها تمتلك شيئاً جديداً هو الحياة. ودعنا نطلق تعليه اسم المحرك، أو الروح. والسؤال الذي سوف نحاول الاجابة عليه في هذا البحث هو: هل هناك روح تختلف في كينونتها عن المادة؟ أي هل ان الكائن الحي يتكون من شيء واحد، وهو المادة فقط، أم من شيئين، هما المادة والروح؟

وهذا السؤال يأخذنا الى مشكلة الفلسفة التي استمرت على مر العصور، والى معترك الصراع بين المدارس الفكرية حول ما اذا كانت هنالك روح أم أن الوجود بأكمله مادة فقط. وقد ظهرت ثلاث مدارس فكرية على مر العصور.

المدرسة الأولى: تعتقد بوجود المادة وحدها وليس هناك روح وهي المدرسة المادية.

المدرسة الثانية: تعتقد بوجود الروح فقط (تسميه العقل او الفكر) وتزعم انه ليس هناك مادة، وان ما يسمى المادة هو تصورنا عن الوجود فقط وهذه هي المدرسة المثالية.

المدرسة الثالثة: تؤمن بوجود المادة والروح معاً وتقع المدرسة الاسلامية والأديان الأخرى التي تؤمن بالله ضمن هذه المدرسة.

والفكر السائد في عصرنا الحاضر، وخاصة في أوربا، هو الفكر المادي الالحادي بعد أن تم التخلي عن الكنيسة. ونحن نود أن نشير هنا

الى انه اذا كانت المسيحية لها مشكلاتها التي جعلت الفلاسفة والمفكرين يتخلون عنها فان هذا لا يعني أن الحل الآخر الوحيد هو الالحاد. ذلك لأننا اذا صححنا المشاكل التي تعاني منها المسيحية بواسطة فكرة أخرى أو مفهوم آخر (كالاسلام مثلاً) فاننا نستطيع ان ندعي ثنائية الوجود (أي المادة والروح) مرة أخرى دون أي مشكلة أو أي تناقض.

ويتضح أن مشكلة الفلاسفة الأوربيين المعاصرين، والذين يولد معظمهم على التعاليم المسيحية، هي أنهم عندما تخلوا عن المسيحية لم يأخذوا الأديان الأخرى بنظر الاعتبار والتمحيص. ولما أصبحت المسيحية غير مقبولة لديهم، أصبحت بقية الأديان كلها غير مقبولة أيضاً، وبذلك رفضوا فكرة الله، ثم بدأوا البحث عن أصل فكرة الله ومن أين أتت فخرجوا بالنتيجة التي تقول ان الانسان هو الذي خلق فكرة الله. وهو قصور واضح لان الفلاسفة يجب ان يبحثوا عن الحقيقة أينما كانت، وعليهم ان يمحصوا كل الأفكار المطروحة وكل الأديان. واذا تخلوا عن فكرة معينة فان عليهم اعطاء التبريرات المنطقية الكافية.

ولكي تتضح مشكلة الفلاسفة الماديين فان الفيلسوف الانكليزي الملحد (برتراند رسل) يقول كذباً عن الاسلام[2]: "والسكان(*)، ولكي يتخلصوا من الجزية تركوا المسيحية بكثرة للدخول في الإسلام". وبطبيعة الحال فان (رسل) ليس محقاً. فالجزية في الحقيقة هي مقدار ضئيل من المال تُفرض على اليهودي والمسيحي لقاء اعفائه من الخدمة العسكرية ويقابلها كثير من الضرائب التي يدفعها المسلمون لقاء توفير الأمن والخدمات. وتسقط عن الأطفال والنساء والشيوخ والعجزة والفقراء والمجانين والمعوقين. وهذا المقدار البسيط لم يكن واجباً الا على الرجل الذي يستطيع الحرب، فاذا أعطاها تدرأ عنه واجب الذهاب الى الحرب ويصبح واجباً على المسلمين الدفاع عنه.

فهل يُعقل ان انساناً يغير دينه ويذهب الى الحرب لكي لا يدفع هذا الثمن البخس كما يدعي رسل زوراً وبهتاناً؟ وهل يُعقل أن يكون هذا الثمن باهظاً كما يدعي (رسل) خاصة وان المسلم يدفع اكثر منها على شكل زكاة وفوق ذلك يذهب الى الحرب؟

وبطبيعة الحال فان (رسل) لم يكن يبحث عن الحقيقة كما يجب على الفلاسفة، بل أقصى ما كان يبحث عنه هو ايجاد ما يسند نظرته الالحادية.

---

[2] **انظر المصدر ٣، ص ٤٢١**

(*) **يقصد أهل الكتاب الذي أصبحوا تحت السيطرة الاسلامية بعد الفتوحات.**

والفلاسفة الأوربيون الذين كانوا يؤمنون بوجود الخالق كانت تجابههم صعوبات كبيرة لأنهم لم يستطيعوا أن يبرروا معتقدات الكنيسة التي كانت تشكل المشكلة، فقد كانوا محدودين بحدودها التي لعب الانسان بها كثيراً، كما يقول رسل نفسه.

وهناك مشكلة اخرى يمكن ملاحظتها في تفكير الفلاسفة، خاصة الأوربيين منهم، تلك انهم تستحوذ عليهم فكرة محاولة تفسير الوجود على أنه يتكون من شيء واحد، أما المادة وأما الروح. وهذه الفكرة يمكن ملاحظتها على تفكير الكثير من المفكرين.

ويبدو الآن أن فكرة المادة قد تبخرت واتضح أن المادة ليست سوى وجه من وجوه هذا الوجود، وهو الوجه المحسوس من العالم. وهناك وجهان لهذا الوجود هما المادة والعقل، أو ما نطلق عليه الجسم والروح بالنسبة للانسان.

والسؤال الان هل ان المادة هي تصورات العقل عن الوجود؟ أم أن العقل نفسه ليس سوى المادة آخذة طابعاً آخر؟ أم أنهما شيئان متميزان يتكونان من نوع آخر أكثر أساسية في الوجود؟

هذا ما سنحاول أن نتعرف عليه في هذا الفصل.

٢-٢ – برتراند رسل والعلاقة بين العقل والمادة

ان نكران وجود الله يتزامن معه نكران وجود الروح في معظم الاحيان. ذلك لأنه اذا اعترفنا بوجود الروح فان ذلك يقودنا الى الاعتراف بما وراء المادة والذي يقودنا الى الاعتراف بوجود الله. وبالرغم من أن المفروض في الفلاسفة أن يبحثوا عن الحقيقة، ولا شيء سوى الحقيقة، فانهم ليسوا كذلك، الا القليل منهم. والملاحظ أنهم كبقية الناس (ولكنهم أكثر ذكاءً) يحملون فكرة معينة ويحاولون جمع الأسباب لتبرير هذه الفكرة. وبطبيعة الحال فانهم يختلفون في درجة تحيزهم الى الفكرة التي يحملونها مسبقاً.

وبالنسية لموضوعنا، العقل والمادة، فان احدى الأفكار تقول أن العقل والمادة هما شيء واحد ولكن الاختلاف بينهما درجة. وهذا المفهوم تشير اليه الاكتشافات الجديدة في علم الفيزياء والآراء الحديثة في علم

النفس. ولكن الاكتشافات العلمية وبعض الآراء غير الواثقة في علم النفس أدت الى نوع من التشويش وعدم الوضوح.

(برتراند رسل) يقول[3]: "يجب القول ان التمييز القديم بين الروح والجسم قد تبخر بسبب ان المادة فقدت صلابتها، وبسبب أن العقل فقد روحيته". ونحن نقول أن المادة قد تكون فقدت صلابتها لأنها خاضعة للتجربة العلمية، ولكن من الصعوبة وصف العقل على أنه فقد روحيته لانه غير خاضع للتجربة العلمية المادية على طريقة علوم الفيزياء (لاحظ أننا هنا نتكلم عن العقل وليس الدماغ). من هذا يتضح أن أي رأي يطرح في هذا الخصوص ليس سوى ظن، وانه محدود الى حامله. لانه ليس هناك من سبيل أو طريقة أمام العلم يستطيع أن يبرهن فيها أن الروح ليست موجودة. ولكن (رسل) يؤكد مرة اخرى بالقول[4]: "ليس هناك دليل على وجود أي فرق أساسي بين مكونات عالم الطبيعة والنفس. ونحن نعرف عن كليهما أقل مما كان يُعتقد سابقاً، ولكننا نعرف ما فيه الكفآية لكي نكون متأكدين من أنه لا الروح ولا الجسم باستطاعتهما أن يجدا مكاناً في العلم الحديث. فالفيزيائيون اختزلوا الذرة الى سلسلة من الحوادث. ولأسباب جيدة مساوية، يجد علماء النفس أن العقل لا يمتلك هوية الشيء الواحد المستمر، بل سلسلة من الوقائع مرتبطة بعضها مع بعض بواسطة علاقات وثيقة معينة".

ونحن نقول انه قد يكون هذا صحيحاً بالنسبة للمادة ولكن ليس بالنسبة للعقل. وقصور الرؤيا سببه قصور التمييز. فالحوادث التي تكوّن المادة ليست حوادث عشوائية ولكنها حوادث منتظمة ومرتبطة بطرق وأساليب خاصة تؤدي الى تكوين الاجزاء المختلفة من الكون (أو الظواهر كما قد تسمى)، أي أنظمة الكون. وليس هناك دليل على ان العقل مشابه لذلك أيضاً. وحتى لو فرضنا جدلاً أن ما يقوله (رسل) صحيح فالسؤال الذي يطرح نفسه هو:

- ما هي هذه العلاقات الوثيقة؟
- وما هو الشيء الذي يحافظ عليها مرتبطة بعضها ببعض بهذا النظام العجيب؟
- وما هو السر وراءها الذي يحافظ عليها من الانعدام؟

---

[3] انظر المصدر ٣ ـ ص١٣٢

[4] نفس المصدر السابق ص ١٣٤ و ١٣٩

و (رسل) يستمر بالقول[5]: "ولا يستطيع حتى المتوقد ايماناً بالروحية أن يدعي معرفة الأدلة على بقاء الروح[*] بقدر ما يستطيع أن يتقدم به المؤرخون للبرهنة على أن السَحَرَة يبايعون الشيطان جسدياً".

وانه لواضح أن ما يريده (رسل) هو أن نموت ثم نرجع لنخبره بالجواب، وهو ما طلبه الناس من الأنبياء. و (رسل) بطبيعة الحال يعلم أنه يطلب المستحيل، ويتصوره سنداً قوياً لنظريته.

ولكن ليس كذلك !!!

فالاكتشافات الحديثة بينت عكس ذلك وهو ما يشير اليه (غودمان) عندما يقول ان[6]: "اكلز الحائز على جائزة نوبل، تحدى رأي المائة سنة للماديين علناً بالقول أن الانسان يتكون من كلا الشيئين، نظام فيزيائي وروح غير ملموسة، مرتبطين بواسطة حاسبة متطورة جداً أو وسيلة اتصال متبادل وثيق وهو الدماغ. وهو قد توقع التعقيدات التي تتضمنها البحوث الأكثر حداثة على خبرات قرب – الموت (الموت المؤقت القصير) عندما أكد في الستينات من هذا القرن أن روح الانسان تبقى ما بعد موت الدماغ الفيزيائي".

و (رسل) يعطي أسبابه بالقول[7] : "ان الصعوبة بالنسبة للعلم تنبع من حقيقة انه لا يبدو ان هناك كينونة كالروح أو النفس".

وانه لمن العجيب بالنسبة لرجل مثل (رسل) ان يشذ بهذا المقدار لكي يعطي رأياً كهذا. وخلافاً لرأي (رسل) اننا نعتقد أن الصعوبة أمام العلم هي ليست عدم وجود شيء كالروح ولكن لان العلم وأدواته محدودة الى العالم المادي وليس بامكانها الوصول الى ما وراء ذلك لتحسس أي شيء هناك. والعلم، على كل حال، لم يَدَّعِ الوصول الى حدوده القصوى بعد، فالبحوث ما زالت مستمرة وفي تقدم وهناك الكثير الذي ما زال لم يكتشف. و (رسل) يرسم صورة للعلم وكأنه قهر كل شيء ووصل الى الروح فاكتشف انها غير موجودة. وهذا بعيد كل البعد عن واقع العلم.

و (رسل) يُظهر لنا نقصاً كبيراً في المعلومات، وقد يكون متعمداً، عندما يؤكد على ان[8]: "الروح، وكما ظهرت لأول مرة في الفكر

---

[5] انظر المصدر السابق ـ ص١٣٧

[*] أي بقاءها بعد الموت.

[6] انظر المصدر ٢ـ ص ٢٦٤

[7] انظر المصدر ٣ـ ص١٣٨

[8] انظر المصدر ٣ـ ص ١١١

الاغريقي، كانت تمتلك أصلاً دينياً بالرغم من أنه ليس مسيحياً .... والفيثاغوريون أثروا على أفلاطون، وأفلاطون اثر على آباء الكنيسة... وبهذه الطريقة فان معتقد الروح على انها شيء متميز عن الجسم أصبح جزءً من المعتقد المسيحي".

أليس هذا غريباً !! فهل يقصد (رسل) ان مفهوم الروح لم يكن موجوداً قبل الفيثاغوريين وأفلاطون؟ وماذا عن الأنبياء والأديان التي كانت موجودة في الشرق الأوسط كأرض الرافدين والجزيرة العربية؟

ان ما يقوله (رسل) يدحضه التاريخ، فمفهوم الروح كان موجوداً في الشرق قبل أن يظهر الاغريق على مسرح الاحداث، والمسيحية لم تكن بحاجة الى أفلاطون ليعلمها فكرة الروح حيث كانت فكرة الروح احدى المفاهيم الذاتية لها منذ البداية كما هي الحال مع بقية الأديان السماوية. ونحن لا نفهم من أين أتى (رسل) بهذا الرأي وكيف توصل الى هذا الاستنتاج الذي هو كاذب واضح، ومن الواضح ايضاً أنه لم يؤمن بالحياة بعد الموت كما صرح هو بذلك في مناسبات عديدة، ولذا فانه، وكنتيجة طبيعية، لم يؤمن بالروح، وقد يكون العكس. ومهما يكن السبب فان ذلك ليس مهماً. ولكننا نعتقد انه تخلى عن المسيحية، ولذا فان الباقي يتبع.

٢-٣ – الشيء الثالث الأساسي

ولتفسير الوجود فان (رسل) يطرح نظريته التالية[9]: "ان الشيء الذي يتركب منه عالمنا الذي ندركه، في اعتقادي، ليس العقل وليس المادة ولكنه شيء آخر اكثر بساطة من كليهما. فكلا العقل والمادة يبدوان متركبين[*] والشيء الذي يتألفان منه يقع بينهما بمعنى، وفوقهما بمعنى، كأنه السلف الأعلى".

اذن بالنسبة (لرسل) هناك شيء ثالث أساسي. ولكن هل أن هذا الشيء مادي أو لا مادي؟

٢-٤ – معضلة الصور

و (رسل) يسهب في الكلام عن حوادث فيزيائية وعقلية والفروق

---

[9] انظر المصدر السابق – ص ١٠

[*] أي انهما يتكونان من اكثر من عنصر.

بينهما، ويصل الى كيفية تكوين الصور في العقل، والتي يصعب شرحها مادياً، فيقول[10] ": "ان المشكلة الحيوية هي علة الصور. وقد رأينا أنها خاضعة الى أسباب تتعلق بالذاكرة، وهذه الأسباب التي تتعلق بالذاكرة قد يمكن اختزالها الى أسباب فيزيائية في الخلايا العصبية. وهذا هو السؤال الذي يدعو الى أن يتحول تفكيرنا باتجاه ما قد يطلق عليه المادية. وأحَد معاني المادية هو الرأي القائل أن جميع الظواهر العقلية معتمدة سببياً على الظواهر الفيزيائية في المفهوم المعرف أعلاه للتبعية السببية. وسواءً كانت هذه هي الحال أم لا، فانني لا أتظاهر بأنني أعرف. والسؤال يبدو لي انه نفس السؤال ما اذا كانت العلة التي تتعلق بالذاكرة هي النهائية، والتي درسناها دون اتخاذ القرار. ولكنني اعتقد أن معظم الأدلة تشير الى الجواب المادي على أنه الأكثر احتمالاً".

هنا تنشأ الصعوبة من محاولة نسب علة الصور الى الظواهر المادية، والتي تكوّن سؤالاً يستعصي حله بالنسبة (لرسل)، ولذا فانه يتركه دون حل. ونحن نتساءل: اذا كانت هذه هي الحال فما هو الذي يدعو رسل الى القول بأن المادية هي الأكثر احتمالاً؟ واذا كانت هناك أدلة، كما يقول، لماذا لا يستطيع اتخاذ القرار بصددها؟

ان العجز عن اتخاذ القرار والتناقض واضح عنده. فانه، وكفيلسوف يحترم عقله، اما أنه يترك القضية بدون ابداء رأيه، أو انه يسند رأيه بأدلة مقبولة اذا كانت مادية. ولكن ما يحدث هنا هو أن (رسل) لا يستطيع أن يقرر على الجواب ولكنه بنفس الوقت يزيح رأيه نحو المادية بدون أي دليل أو تبرير منطقي. والسبب الوحيد الذي نراه لهذا الموقف هو تحيزه ضد وجود الروح، لان الاعتراف بوجود الروح يقوده الى الاعتراف بوجود الله وبالنسبة له فان هذا معناه الرجوع الى المسيحية ومعتقداتها التي رفضها ولايستطيع قبولها. ولذا فانه في الواقع مُحاصَر، ولا يمكنه الا ان يبقى كذلك. وهذا هو حال الملحدين دائماً.

وهو لم يبحث عن حل آخر قد يعطيه الأجوبة لحل الغموض والالتباسات التي واجهها هناك. ولكنه، ولكي يخرج من هذا الموقف، فانه يحاول المحاولة التالية، وهي طلب أقل ما يقال عنه انه غير مقبول. فهو يقول[11]: "ان الصوفي نفسه قد يكون متأكداً انه يعرف ولا يحتاج الى اختبارات علمية، ولكن أولئك الذين يطلب منهم ان يقبلوا بينته سوف

---

10 انظر المصدر ٥، ص ٣٠٣

11 انظر المصدر ٣ - ص ١٧٨

يخضعونها الى نفس نوع الاختبارات العلمية كتلك التي تطبق على الرجال الذين يقولون انهم ذهبوا الى القطب الشمالي".

فهو يطلب أدلة علمية، وبطبيعة الحال أن الأدلة العلمية تتضمن تحسساً وقياسات. وهذا يحتاج الى آلات أجهزة تحسس، والذي يتضمن المادية. ونحن نرى انه يطلب المستحيل لان ما وراء الطبيعة، وبالتعريف، ليس شيئاً مادياً ولا يمكن اخضاعه للتحسس المادي. وهذا يذكرنا بما كان يُطلب من الأنبياء: المعجزات. والأنبياء أتوا بالمعجزات، ولكن ليس لأناس مثل (رسل) الذي يجب أن يقنع بشيء أقل من المعجزة المادية الواضحة. وأنه لواضح أن (رسل) طلب واحدة. وهذا يبين أن الانسان لم يتغير كثيراً خلال العصور كما قد يظن بعض الناس بالرغم من التقدم العلمي المعاصر.

اما بالنسبة للصور فقد بين الفيلسوف الاسلامي محمد باقر الصدر[12] أنها لا مادية كالآتي. دعنا نأخذ حالة النظر الى دار بنظر الاعتبار: ما هي الصورة التي تدركها عقولنا عن الدار؟ والجواب يقع ضمن أحد الاحتمالات الثلاثة التالية التي تختلف عليها المدارس الفكرية:

الاحتمال الأول

أن الدار نفسه هو الصورة الموجودة في ادراكاتنا، وهذا بطبيعة الحال مستحيل لاننا أحياناً نرى أشياء غير موجودة (حيث يخيل لنا وجودها)، ولأن ما عندنا من الشيء المرئي هو الأشعة الضوئية المنعكسة منه فقط.

الاحتمال الثاني

أن الصورة المدرَكة هي نتاج مادي يوجد في خلايا الادراك في الدماغ. وهذا غير ممكن أيضاً لان الصورة المدرَكة بحجمها الكبير، وأبعادها من الطول والعرض والارتفاع، لا يمكن أن توجد في مادة الخلايا العصبية الصغيرة الحجم. وبطبيعة الحال فأننا لا ننكر أن هناك تأثيراً ما يحدث في الخلايا العصبية لانتاج الصورة ولكن هذه الصورة المادية في خلايا الدماغ ليست الصورة التي يدركها العقل لانها لا تمتلك الأبعاد التي تمتلكها الصورة المدرَكة. وكما أننا لا نستطيع أن نضع صورة للدار تمتلك نفس أبعاد الدار على قطعة صغيرة من الورق فاننا

[12] انظر المصدر ٦

لا نستطيع ان نضع صورة عقلية بحجم الدار على منطقة صغيرة في الدماغ، حيث ان طبع صورة كبيرة على ما هو أصغر مستحيل، لاحظ ان العقل يدرك الأبعاد الكبيرة للدار، وكذلك أبعاد الأجزاء الكبيرة والأجزاء الصغيرة، من خلال الصورة التي يدركها، وبالطبع فانه يدرك ان حجم الدار أكبر من حجم الدماغ. وهذه كانت الصعوبة التي واجهها (رسل).

هناك امر مهم، يبدو ان رسل لم يعرفه لعدم توفر المعلومات لديه، وهو ادراك العقل للحركة، فهناك جزء في الدماغ يدرك حركة وسرعة الصور (يختلف عن الصور الثابتة). واذا حدث خلل لهذا الجزء فلايستطيع الفرد ان يدرك حركة الاشياء حوله.

الاحتمال الثالث

الذي بقي هو أن الصورة المدرَكة للدار لا مادية وتوجد خارج المادة. وهذا هو المقصود بالمفهوم القائل ان الادراك لا مادي بطبيعته. وهذا المفهوم يسنده الثبات. والمقصود بالثبات أن الصورة التي يدركها العقل ثابتة ولا تتغير بتغير الصورة المنعكسة للدار على خلايا الدماغ. كما هي الحال عند النظر الى الدار من مسافة بعيدة. فبالرغم من أن الصورة المنعكسة عن الدار أصغر من النظر الى الدار من مسافة قريبة، فأن العقل يدرك نفس الصورة حتى لو فرضنا ان ذلك يتطلب خبرة سابقة. فان الحقيقة تبقى نفسها، وهي ان الصورة المدرَكة تبقى ثابتة بينما الصورة المنعكسة تتغير بتغير المسافة بينها وبين الدار، والتي تؤكد الطبيعة اللامادية للصورة المدرَكة. وبذلك فان مشكلة (رسل) التي كان عاجزاً عن اتخاذ القرار بصددها قد تم حلها.

٢-٥ – التأرجح والتذبذب

و (رسل) يعود ليقع في تناقض مع تحيزه الأول نحو المادية، فيقول[13]: "وأنا اعتقد، وعلى كل حال، وعلى أساس نظرية المادة .... ان تفسيراً علمياً نهائياً لما يحدث في العالم، اذا كان من الممكن التحقق منه، سيشابه علم النفس أكثر من الفيزياء فيما وجدناه من فرق حاسم بينهما".

13 انظر المصدر ٧ - ص ٣٠٥

وبـهذا الرأي يتضح تردد (رسل) وتذبذبه في اتخاذ القرار النهائي لتفسير طبيعة الوجود. وفي هذا الرأي الأخير له يمكن تحسس التناقض مع نظريته في "الشيء الثالث" الذي تتكون منه المادة والعقل. وذلك لانه اذا كان الشيء النهائي يشبه علم النفس وليس الفيزياء، والذي معناه العقل وليس المادة، فلا يبقى هناك مبرر للشيء الثالث الذي يطرحه (رسل) كنظرية، والشيء النهائي (بالنسبة له) هو العقل وليس المادة.

ولذا فان (رسل) يشير الى[14]: "ان خطأ فلسفة المادة هو الذي سبب كثيراً من الصعوبات في فلسفة العقل .... والعقل عبارة عن درجة، متمثلاً بصورة رئيسية في عدد وتعقيد العادات..... وكل القضايا المسلّم بها، في كلا الفيزياء وعلم النفس، خاضعة الى قوانين العلية النفسية، ولكن قوانين العلية الفيزيائية، وعلى الأقل في الفيزياء التقليدية، يمكن صياغتها بلغة المادة فقط والتي هي ليست معلومات مسلم بها سواءً كانت مُستَدَل عليها أو مركبة. وفي هذا الخصوص فان علم النفس هو أقرب الى ما يوجد فعلياً".

ان التذبذب بين ما اذا كان الشيء النهائي هو المادة أو العقل واضح عند (رسل). وبالرغم من انه يقترب من الوصول الى حقيقة الشيء النهائي الا ان نظرته المادية تحجب صورة الواقع النهائية عنه، وهو في الواقع لا يوضح ما اذا كان الشيء النهائي مادة أم عقل.

فتارة يقول أن العقل درجة من المادة ولكنه يرجع ليقول أن علم النفس هو أقرب الى ما يوجد في الواقع. وفكرة محاولة البرهنة على أن الوجود يتكون في النهاية من شيء واحد لا زالت تستحوذ على تفكير (رسل). وبسبب ذلك. وبسبب تصوره ان العقل والمادة ليسا سوى تركيبين منفصلين، فانه يعتقد انه اذا مات الانسان فان التركيبين يتحطمان، ولذا فانه من غير الممكن اعادة اجتماعهما مرة أخرى. ولكنه لا يتكلم أبداً عن كيفية اجتماعهما في المرة الأولى. وقد يكون ذلك بسبب ايمانه بأن الحياة انبثقت في المادة بطريق الصدفة كما تزعم نظرية التطور وتعديلاتها. فهو يقول[15]: "اذا كنا نريد أن نؤمن ببقاء الشخصية بعد الموت، يجب علينا أن نفترض وجود استمرارية للذاكرة أو على الأقل العادات، لانه بدون ذلك لن يكون هناك سبب لافتراض أن نفس الشخص مستمر في الوجود.... والعادات والذاكرة كلاهما ناتجتان عن

---

14 انظر المصدر السابق- ص ٣٠٧ و ٣٠٨

15 انظر المصدر ٣ - ص ١٤١- ١٤٣

تأثيرات معينة على الجسم، خاصة الدماغ ... والتأثيرات على الجسم التي تولد العادات والذاكرة تنمحي بالموت والتفسخ، وانه لمن الصعب رؤية كيف يمكن انتقالهما، عدا حدوث المعجزة، الى جسم جديد كالذي يُفتَرَض اننا نقطنه في الحياة الآخرة.... ان استمرارية الشخص طيلة حياة جسمه، اذا كانت تعتمد، مثل ما أؤكد، على تكوين العادات فانها يجب أن تعتمد أيضاً على استمرارية جسمه.... فالشخصية هي قضية تنظيم بصورة أساسية، حيث أن حوادث معينة تجتمع مع بعضها بواسطة علاقات معينة لتكوين الشخص. والاجتماع يُنجز بواسطة قوانين العلية، تلك التي لها علاقة بتكوين العادات، والتي تتضمن الذاكرة. وقوانين العلية المعينة تعتمد على الجسم. فاذا كان هذا صحيحاً - وهناك أسس علمية قوية للاعتقاد بأنها كذلك - فان توقع بقاء الشخصية بعد تحطيم الدماغ هو مثل توقع بقاء نادي للكركت (*) عندما يموت كل أعضاؤه".

ان ما يتضمنه هذا الكلام مهم للغاية لان ما يريد (رسل) ان يراه هو بقاء الروح في عالمنا هذا بعد الموت كبقائها عندما تكون داخل الجسم. وهذا يفترض، كحقيقة مسلم بها، ان الوجود المادي هو الوجود الوحيد، والذي في الواقع يجب على (رسل) ان يبرهنه بدلاً من اعتباره حقيقة.

٢-٦ – فشل نظرية الشيء الثالث الاساسي

ولنرجع الى نظرية "الشيء الثالث" التي يقترحها: فاذا كانت الظواهر التي تكوّن العقل مختلفة عن الظواهر التي تكوّن الجسم فلماذا يفترض تحطيمها هي الأخرى عند تحطيم ظواهر الجسم؟ اننا نستطيع أن نفترض بقاءها وليس هنالك اشكال.

ان هذه النظرية (نظرية الشيء الثالث) لا تفسر كيف يحدث بناء العقل. وان الشيء الذي تقود اليه هذه النظرية هو الآتي: بعد الشيء الأساسي الثالث تأتي المادة وفقط (قبل خلق الحياة). ولا تتطرق النظرية الى كيفية بناء العقل والمادة في وقت لاحق.

والشيء الذي لم ينتبه اليه (رسل) هو أن العقل يتحكم بالمادة بحيث أن المادة تتجمع لإنشاء نظام معقد (هو الجسم). وبكلمة أخرى:

ان الظواهر التي تسمى العقل تتحكم بالظواهر التي تسمى المادة

(*) لعبة تتطلب فريقين للقيام بها.

بحيث ان العقل يقود المادة كما يقود السائق السيارة. واذن عندنا هنا نوعان من الظواهر المنظمة:

احداهما، وهي المادة، سلبية أو مستعبدة.
والثانية، وهي العقل، فعالة أو مسيطرة.

ويتضح أن هناك نظاماً تسلسلياً من ناحية المراتب. ولكن الغريب فيها: ان ما كان موجوداً أولاً (وهو المادة) هو المسيطَر عليه. ثم ولد المسيطِر (وهو الحياة والعقل) من المسيطَر عليه.

وهذا لانه، وبموجب نظرية الشيء الثالث ونظرية التطور، ما كان موجوداً أولاً هو الشيء الثالث والذي كان على شكل مادة فقط (لان الحياة لم تكن موجودة في البداية). ومنه يتبع أن الوجود بأكمله كان على شكل مادة أولاً لانه من الصعب تصور وجود المادة وجزء من الشيء الثالث على شكل شيء ثالث نقي، والذي أصبح العقل بعدئذ. والصعوبة الاخرى هي إن هناك عقولاً جديدة تخلق عند الولادة.

فأما أن المادة تتحول الى عقل، وفي هذه الحالة تصبح نظرية الشيء الثالث غير ضرورية، أو ان هناك جزءً من الشيء الثالث النقي ما زال موجوداً، وبطريقة ما، وبأسلوب معقد ومتطور جداً، يتحول الى العقل ويتحد بالمادة بحيث انهما يبدوان وكأنهما وجهان لشيء واحد. وفي هذه الحالة فانهما ينفصلان عند الموت، واذاً ما هو الشيء الذي يمنع اتحادهما مرة اخرى تحت ظروف مشابهة للظروف التي أدت الى اتحادهما أولاً؟ أليس بالامكان تصور الانبعاث والنشور بهذه الطريقة؟ فلماذا يصعب على (رسل) تصور اتحاد الروح (أو ما يسميه العادات والذاكرة) مرة أخرى بالجسم في الحياة الآخرة بعد تحطيم الجسم أول مرة عند الموت. من هنا نستطيع أن ندرك عجز (رسل)، والفلاسفة الملحدين بصورة عامة، في تفسير الوجود، ذلك العجز الذي جعله متذبذباً في آرائه بين المادة والعقل.

وعلى أي حال، فان نظرية (رسل) ليست اكثر من نظرية الفلاسفة الالهيين الأوربيين، مثل سقراط وافلاطون وهيغل، مصاغة باسلوب آخر. فأولئك قالوا بوجود الروح والجسم كوحدتين منفصلتين، و(رسل)، الذي انتقد هذه النظرية انتقاداً لاذعاً وساخراً، لم يفعل اكثر من قول النظرية نفسها بطريقة أخرى. فبدلاً من وصف الجسم على انه مادة

وصفه بالظواهر الأساسية للمادة، كذلك الروح سماها العقل ووصفها بظواهر أساسية أخرى تختلف عن الظواهر الأساسية المكونة للمادة، واعتبرهما تركيبين مختلفين مستمدين من شيء ثالث. وبذلك انتهى الى القول بثنائية الوجود دون أن يعي ذلك.

الصعوبة الأخرى للنظرية هي صعوبة تفسير كيفية اتحاد روح الحيمن مع روح البويضة في ضوء النظرية لتكوين روحاً واحدة في الانسان الجديد (وهذه الصعوبة نفسها تواجهها النظرية في الحيوان والنبات أيضاً). وقد واجه الفلاسفة الالهيون الأوربيون نفس الصعوبة. ولحلها قالوا أن الروح تدخل الجسم في مرحلة لاحقة. و (رسل) لم يحاول أن يتطرق الى هذا الموضوع الشائك. وبدلاً من ذلك اختار أن لا يدخل في الموضوع وأن يتجاهله كلياً، عدا انتقاده للفلاسفة الالهيين دون تقديم الحل.

وهناك صعوبة أخرى للنظرية أيضاً، تلك هي انها لا تفسر كيف ينضج العقل، وهذا النضـج يمكن النظر اليه كنمو في عالم الوجود.

فكيف تنمو الأفكار والذاكرة وقوة الادراك والتمييز والارادة والوعي من الشيء الثالث بينما الانسان يُدخِل المادة فقط الى جسمه على شكل غذاء؟ فالنمو الجسمي يمكن فهمه لان الغذاء مادة تضاف الى مادة، ولكن كيف ينمو العقل اذا كان مستمدّاً من ظواهر مختلفة حيث ان الانسان لا يأكل هذه الظواهر ولا يستنشقها؟ واذا قلنا أن العقل يأخذ احتياجاته من المادة وينمو، فليس هناك حاجة الى الشيء الثالث اذن. وفي هذه الحالة، وكما هو واضح، نرجع الى المادية التي برهنا على عدم كفايتها لتفسير الوجود.

وقد يكون من المفيد أن نذكر هنا أن العقل هو نمط متطور من التركيب، أو الوجود، لانه يتحكم في المادة. لذا فانه يمتلك خصائص لا تمتلكها المادة حيث أن المادة وحدها لا تسلك ولا تتغير بنفس الطريقة التي تسلك أو تتغير فيها عندما يحكمها العقل. وهذا يقودنا ضد المادية أيضاً، لانه اذا كان العقل نوعاً من المادة لماذا اذن محدوديتـه الى أجزاء معينة من المادة الموجودة (التي تصبح حية) بدلاً من المادة بأجمعها؟ ولماذا لا تتغير المادة الميتة الى عقل (أو حياة) الا تحت ظروف خاصة تتطلب تدخل عقول اخرى (بواسطة الانجاب)؟

و (رسل) يزعم في نظريته هذه انه لا يوجد محرك يحرك الجسم، وليس هناك روح، ويدعي ان ما يوجد ليس أكثر من ظواهر مربوطة

بواسطة علاقات وثيقة. فهو يقول[16]: "ان الحقائق الأولية التي يمكن ملاحظتها لا تمتلك ثنائية كهذه، ولا تعطي سبباً لاعتبار أي من الأشياء أو الأشخاص أي شيء عدا كونها مجموعة من الظواهر ". وهنا فانه لا يميز بين الظواهر التي تكوّن المادة والظواهر التي تكوّن العقل. ولا نعلم ماذا حدث للشيء الثالث وثنائية ظواهر العقل وظواهر المادة التي يطرحها هو نفسه.

وما نريد توضيحه هنا هو انه لا شك اننا عندما ننـزل الى الأساسيات فان الوجود يظهر على شكل مجموعة من الظواهر، ولكن هذه الظواهر ليست عشوائية، بل أنها منظمة ومقيدة باتباع قوانين صارمة واتجاهات ومسالك معينة لبناء المادة والعقل والوجود الذي نتحسسه سواءً في داخلنا أو خارجنا. وهذه الظواهر يؤثر بعضها على بعض باسلوب مصمم وليس عشوائياً. واحسن مثال على ذلك هو الفرق الواضح بين العلاقات المكونة للحجر والعلاقات المكونة للشجر، أو بصورة أفضل العلاقات المكونة للمادة والعلاقات المكونة للعقل، وهما نوعان متميزان من الوجود. فالفرق واضح، ذلك ان احدهما يتحكم في الآخر باسلوب معين والذي نسميه الارادة والرغبة عندما نهبط في عالم الوجود الى مستوى احساساتنا وادراكاتنا.

ويقول (رسل)[17]: "ان جزء العقيدة هذه الذي يخص الحياة الحاضرة زائف بكل تأكيد، حيث أن مادة الجسم تتغير باستمرار بواسطة عملية التغذية وطرح الفضلات. وحتى لو لم تكن كذلك، فان الذرات لا تعتبر الآن على أنها تمتلك وجوداً مستمراً في علم الفيزياء، وليس هنالك معنى للقول: ان هذه هي نفس الذرة كتلك التي كانت موجودة قبل بضعة دقائق. واستمرارية جسم الانسان ليست سوى مظهراً وسلوكاً، وليست من المادة".

لا شك فيه أن الذرة تتغير، حيث أن مكوناتها تدور حول النواة فيها، وتتحول من نوع الى آخر ضمنها، ولكن الذرة نفسها، وباعتبارها وحدة معينة، لا تتغير أو تتحول الى وحدة من نوع آخر ولا تتحطم أو تتغير الى شيء آخر، والا لاقتضى تغيرها أن تتغير مكونات وخصائص الجسم. فصحيح ان هناك حركة ضمن الذرة ولكنها ليست فعل انعدام. وعلى أي حال، ليست هناك أدلة على أن التحولات من نوع الى آخر

---

16 انظر المصدر السابق – ص١٢١

17 انظر المصدر ٣، ص ٧٠

للجسيمات (ذات الحجوم المتناهية في الصغر) المكونة للذرة تفصل بينها فترات زمنية (مهما كانت هذه الفترات صغيرة) بحيث توجد هناك فترة زمنية خلالها لا يوجد شيء (أي خلالها يحدث العدم). فالتحولات تحدث بشكل مشابه لسلخ قشرة البرتقالة حيث تخلع القشرة وبنفس الوقت يظهر اللب، وليس هناك فترة زمنية خلالها تكون القشرة قد أزيلت وليس هناك لب تحتها.

لذا فان استنتاج (رسل) القائل انه ليست هناك استمرارية في الوجود، وأن ذرة اليوم ليست نفس الذرة التي كانت موجودة امس، ليس استنتاجاً صحيحاً. أما عن مادة الجسم الفعلية فانه من الواضح انها تتغير وتتبدل خلال حياة الانسان، وليس هناك سبب أو حاجة، تدعو الى فرضها ثابتة لاننا نرى ذلك عندما تزداد أجسامنا وزناً، أو تفقد وزناً، و (رسل) يخلط بين استمرارية وجود الجسم مع مادة الجسم الفعلية الموجودة فيه. فالمادة تتغير، ولكن الجسم (وهو الصورة) يبقى نفسه. وعلى كل حال، فان هذا مثالاً رائعاً على امكانية بعث الانسان بمادة مختلفة ولكن نفس الجسم، ولا تدعي الأديان السماوية اكثر من ذلك، فهي لم تزعم أن مادة الجسم نفسها تبقى. ويتضح أن (رسل) يدحض افتراضاً يطرحه بنفسه ولكنه يدعي أن الأديان تزعمه. وسوف نرى في نهآية هذا الفصل كيف ان الفيلسوف الاسلامي الكبير صدر المتألهين الشيرازي شرح هذا الموضوع قبل بضعة قرون شرحاً يخلب لب الحكماء ولكن يبدو ان (رسل) لم يطلع عليه.

ويستمر (رسل) برسم نفس التشابه بالنسبة للعقل كما رسمه للمادة فيقول[18] : "ان الاستمرارية الذهنية للشخص عبارة عن استمرارية للعادات والذاكرة: كان هناك شخص ما أمس أستطيع أنا ان أتذكر شعوره، وذلك الشخص أنا اعتبره نفسي البارحة، ولكن في الحقيقة، أن نفسي البارحة لم تكن سوى وقائع ذهنية معينة يتم تذكرها الان، وينظر اليها كجزء من الشخص الذي يتذكرها الآن. وكل ما يكوّن الشخص هو سلسلة من الخبرات مربوطة بواسطة الذاكرة وبواسطة تشابهات معينة من النوع الذي نسميه العادات".

وهنا فان (رسل) يفترض أن هذه الوقائع مفصولة بعضها عن بعض بواسطة الزمن (بطريقة تشابه زعمه في تغيرات الذرة). ولذا فانها بالنسبة له سلسلة مربوطة بواسطة الذاكرة. ولكن السؤال هنا هو: ما هي

---

18 انظر المصدر السابق ـ ص ٧٠

الذاكرة؟

وعندما نرجع الى نظريته في تفسير الوجود نجد أنها لابد وأن تكون عبارة عن سلسلة من الظواهر أيضاً. وفي هذه الحالة نحن نسأل. ما هو الشيء الذي يربط هذه الظواهر مع بعضها لتكوين الذاكرة لكي تتمكن هذه الذاكرة من ربط سلسلة الظواهر التي تكوّن الشخص؟ فان لم تكن مربوطة بشيء، فان ذلك معناه ان السلسلة ستكون متقطعة، وبذلك ينقطع الشخص لانه ليس هناك جسر يربط الظواهر المكونة له. واذا كانت مربوطة بشيء يجعلها مستمرة فليس هناك ما يمنع افتراض ان الظواهر التي تكوّن الشخص هي الأخرى مستمرة أيضاً، وبنفس الوقت مربوطة الى الذاكرة بصورة ما (وعلى سبيل المثال بصورة شعاعية) كما هي الحال في ربط الذاكرة الى وحدة المعالجة المركزية في الحاسبات الالكترونية الحديثة. وبذلك فان التشابه الذي افترضه (رسل) بين الظواهر المكونة للعقل والظواهر المكونة للمادة (بعد افتراض الأخيرة متقطة بدون أي دليل منطقي) لسنا مجبرين على الأخذ به.

المسألة الثانية في هذا الموضوع هي ان الانقطاع بين الظواهر يفترض أحد الاحتمالين التاليين:

الأول: ان تتحول الظاهرة الواحدة من نوع من الوجود الى نوع آخر من الوجود ثم ترجع الى النوع الأول. وفي هذه الحالة ليس هناك تقطع في الوجود، واذن فالأنا مستمرة بالوجود وليس كما يزعم (رسل).

الثاني: ان تتحول الظاهرة من الوجود الى العدم ثم الى الوجود مرة اخرى. أي انه يفترض حدوث العدم بين وجودين، وهو مرفوض أصلاً. فالوجود لا يتحول الى عدم، واذا انعدم الوجود (على سبيل الفرض) فان رجوعه مستحيل. وواضح ان هذه مسألة لم تخطر على بال (رسل).

لاحظ كذلك ان القول بأن الوجود يتحول الى العدم ثم الى الوجود مرة اخرى معناه القول بأن المتناقضين يتبادلان (لان العدم هو نقيض الوجود) وهو مستحيل بديهياً.

ان نظرية الظواهر المنفصلة، التي تكوّن سلسلة، لا تفسر الوجود. ونحن نعتقد ان المادة قد يمكن تفسيرها بواسطة سلسلة من الوقائع غير المتقطعة وغير المنفصلة بواسطة التحولات أو عمليات التغير والتبدل. وقد بين العلم أن هذه التغيرات تحدث بشكل دوري حيث يتحول الجسيم

من نوع الى آخر ثم آخر وآخر ثم يرجع الى نفس نوع الجسيم الأول وهكذا. والعقل لا يمكن تفسيره بهذا الأسلوب لأنه نوع من الوجود يختلف عن المادة. وبالنسبة لقول (رسل) "ان نفسي البارحة لم تكن سوى وقائع ذهنية معينة يتم تذكرها الآن" لا تفسر أي شيء، وبالتأكيد لا يعني ان هناك انقطاع في الاستمرارية وان "أنا البارحة" ماتت (والذي تتضمنه العبارة أعلاه)، لأن السؤال الذي يطرح نفسه هو: من هو "الأنا الحاضر" الذي يتذكر؟ ومن أين أتى؟

ان هذا الأسلوب في التفكير قاد (رسل) الى القول انه عندما يموت الفرد فان الشيء المكون له يتحطم بأكمله. فهو يقول[19]: "لذا اذا كنا سنعتقد ان الشخص يبقى بعد الموت فانه يجب علينا أن نعتقد أن الذاكرة والعادات التي تكوّن الشخص ستستمر بالعرض بنوع جديد من الوقائع. ولا أحد يستطيع أن يبرهن ان ذلك لن يحدث. ولكنه من السهل أن نرى أن ذلك غير محتمل جداً. فذاكرتنا وعاداتنا مقيدة بتركيب الدماغ بطريقة مشابهة جداً لارتباط النهر الى حوضه، حيث الماء في النهر يتغير دائماً ولكنه يجري بنفس المجرى لأن المطر السابق حفر قناة. وبأسلوب مشابه، فان الحوادث السابقة قد حفرت قناة في الدماغ، وأفكارنا تجري في هذه القناة. وهذا هو سبب الذاكرة والعادات الذهنية. ولكن الدماغ كتركيب يذوب عند الموت، ولذا فان المتوقع ان تذوب الذاكرة هي الأخرى أيضاً. وليس هناك من سبب للاعتقاد بعكس ذلك بقدر ما هناك سبب لتوقع أن يبقى النهر في مجراه القديم بعد أن تتمخض هزة ارضية عن جبل في المكان الذي كان فيه الوادي".

و (رسل) هنا، وبعد أن قال بعدم استمرارية الروح (وأنها عبارة عن وقائع متقطعة) وبدلاً منها توجد الذاكرة والعادات، يذهب الى القول أن هذه العادات لا تبقى بعد تحطيم خلايا الدماغ وذوبانها عند الموت.

وهنا فانه يتكلم عن بقاء الصور والادراكات ضمن عالمنا الحاضر. وليس هناك من أحد يشك في ذلك، ولكنه توصل الى استنتاجه هذا على افتراض أن كل شيء في الوجود مادي، وهو ليس كذلك. لانه اذا كانت الروح لا مادية، وهي كذلك واذا كانت مستمرة الوجود، وهي كذلك (كما جاء أعلاه)، فان الشخص سيبقى بعد الموت.

---

19 انظر المصدر ٣، ص ٧٠

٢-٧ – العقل وحدة تصميم وبناء

ان مثال النهر الذي ضربه لنا رسل مرفوض لان الدماغ ليس قناة أو ممراً كحوض النهر، والعقل ليس فقط أفكاراً تجري خلال الدماغ كما يجري الماء خلال حوض النهر. فالعقل مهندس تصميم وبناء وهو يشيّد الأفكار بطريقة ينظم فيها الظواهر المبعثرة التي تكوّن الأفكار بأسلوب منظم خاص بحيث تصبح هذه الظواهر مربوطة الى بعضها البعض بواسطة علاقات خاصة، لذا فان العقل يبني الافكار، مستعملاً الدماغ كالة.

والأفكار لا توجد بنفسها، وأنما التي توجد هي الظواهر التي تعتبر اللبنات الأساسية لها. ولو كانت منظمة أصلاً كأفكار لما كانت هناك حاجة للعقل لكي يفكر. والبناية لا توجد لان الطابوق موجود، ولكنها توجد بعد ترتيب الطابوق على شكل نظام خاص. وكذلك الأفكار فانها لا توجد لأن الظواهر التي تشكل لبناتها الأساسية موجودة، ولكن بعد أن يربط العقل هذه اللبنات بواسطة علاقات خاصة، عندئذ تصبح أفكاراً. ولذا فاذا ذابت الآلة (أي الدماغ) فأنه ليس من المستحيل ان نتصور ان بامكان العقل تركيب الأفكار بواسطة آلة أخرى مشابهة (لاحظ ان الذاكرة والعادات هي جزء من الأفكار). ولذا فان البقاء بعد الموت والبعث مرة أخرى ممكنان.

والبرهان على ان العقل مهندس بناء يكمن في ملاحظة انه ليس هناك شخصان متشابهان في كل شيء حتى ولو تمت تربيتهم تحت نفس الظروف. فأن كل واحد منهما ستكون له شخصيته المميزة، وحتى التوأمان المتشابهان فانهما مختلفان في شخصيتيهما.

ونظرية (رسل) تقر بوجود الروح بالرغم من انكاره لها. فهو نكر بقاء الروح بعد الموت بالرغم من أن انفصالها عن الجسد لا يتضمن رجوعها الأكيد الى الشيء الثالث الأساسي الذي تقول به نظريته، أي التحطيم. لذا فان احتمال بقائها بعد الموت لا يمكن نفيه. لاحظ ان مادة الجسم لا ترجع الى الشيء الثالث بعد الموت ولكنها تبقى كمادة، وكذلك يمكن تصور الروح.

ان فكرة الروح والجسد المنفصلين عن بعضهما لها مساوئ كثيرة. دعنا نسمي الظواهر التي تركّب العقل ظواهر العقل، والظواهر التي تركّب المادة ظواهر المادة. فاذا كانت ظواهر العقل تتحكم بظواهر

المادة، وهي كذلك، فان ظواهر العقل أعلى من ظواهر المادة في مرتبة الوجود. ويتبع ذلك انه لما كانت ظواهر العقل مُستمدَّة من الشي الثالث فهناك احتمالان:

الاحتمال الأول: ان الشيء الثالث أرقى من ظواهر العقل في مرتبة الوجود، أي انه اكثر ذكاءً. وطبعاً فان النظرية لا تفسر التعقيدات التي تتبع ذلك، فهذه النتيجة معناها أن الشيء الثالث الأساسي ليس أساسياً جداً كما يزعم (رسل) لأنه يمتلك ذكاءً، والذي بدوره يدحض النظرية نفسها.

الاحتمال الثاني: أن هناك نوعاً من الوجود اكثر تطوراً من الشيء الثالث الأساسي يصوغ الشيء الثالث الأساسي الى عقل والى مادة بواسطة تراكيب خاصة.

وكلا الاحتمالين يتضمنان وجود نوع من الوجود أعلى مرتبة من العقل. وهذه النتيجة ليست النتيجة التي كان يود أن ينتهي اليها رسل.

ونظرية الروح والجسد المنفصلين التي زعمها (رسل) والذين من قبله، بأي شكل كان، تجعل من الصعب تصور كيفية تأثير أحدهما على الآخر، ذلك التأثير الوثيق الذي نراه في الانسان. فاذا مرض الانسان أو تألم تتأثر نفسيته، واذا تأثرت نفسيته تتوعك صحته. ولعل اصعب ما يواجه العلم الحديث هو هذا التأثير المتبادل والارتباط الوثيق بين الروح والجسد، أو العقل والمادة (الجسد).

٢-٨ – الروح والنفس

- ماهي الروح؟
- وماهي النفس؟

عادة ما يستعمل الناس الروح والنفس وكأنهما شيء واحد، وفي الفلسفة تسمى العقل. وهنا يحصل التشويش الذهني.

الروح ليست النفس. الروح والنفس شيئان مختلفان. الا انه بدون الروح لا توجد النفس. الروح تعطي الحياة، والنفس هي العقل. كلا الروح والنفس لاماديتان. الروح تجعل الكائن حياً. النفس شيء معقد وينمو في عالم الوجود، وفقط موجودة في الكائن الحي. ولذا فانها تحتاج الى ان تكون الروح موجودة اولاً. النفس هي ما يجعل الفرد مختلفاً عن باقي

الناس. لذا فانها مركز المشاعر والتفكير. فالروح هي محرك الحياة، والنفس هي محرك الشخص الحي.

٢-٩ – الروح

الشيء الوحيد الذي يمكن قوله عن الروح هو ان كل كائن حي عنده روح. والفرق بين الكائن الحي والجماد (اي بين الحياة والموت) هو الروح. والروح شيء لامادي ولا يمكن ان نعرف ماهيتها. والروح لاتنمو بنمو الكائن الحي. ولكنها تولد من روح اخرى يمكن تصورها كالانشطار. وتولد عند ولادة الحيمن وولادة البويضة. والروح تحمل التعليمات الخاصة بخلق النفس.

والروح تسري في كل اجزاء الجسم وخلاياه، لان الخلية التي لا ترتبط بالروح تصبح ميتة.

٢-١٠ – النفس

النفس هي شيء لامادي ايضاً. والنفس وجود معقد من ناحية انه يتكون من عدة مكونات. والنفس هي في الحقيقة العقل، ولذا فانها متطورة اكثر في الانسان لامتلاكها الوعي والارادة اكثر مما هو موجود عند باقي الكائنات الحية على الارض. وعند الانسان فان النفس تنمو بنمو الفرد. والنفس تحتوي على كلا الغرائز والتفكير.

ونحن نحكم على الناس من خلال نفوسهم، سواءً كانوا خيرين ام شريرين، لان النفس هي الحاوية التي تحتضن ملكات التفكير العقلاني. وتحتضن النفس قوى الارادة والانا والرغبات ايضاً.

والنفس لاتسري في كل اجزاء الجسم وخلاياه كما هي الحال مع الروح، ولكن العلم والملاحظة يدلان على انها موجودة في الدماغ والقلب.

ولكن كيف تُخلق النفس؟

تخلق النفس نتيجة لتخصيب البويضة، اي ان النفس تولد عند ولادة الخلية الاولى للمخلوق. بعد ذلك تبدأ النفس بالنمو بطريقة مشابهة لتكوين

الجسد ونموه. والروح تحمل تعليمات ولادة النفس ونموها وتعقيدها.

٢-١١ – الحركة الجوهرية لصدر الدين الشيرازي

وقد ادرك الفيلسوف الاسلامي الكبير صدر المتألهين الشيرازي حل المشكلة. وهو في هذا المضمار يعتبر الفيلسوف الحق وحكيم الحكماء لعصور كثيرة. ونظريته تقول[20]: "أن العقل والمادة نوعان مختلفان من الوجود، ولكن ليس بنفس المفهوم الذي حمله (رسل) او الفلاسفة الأوربيون. فالمادة تتحرك في حركتها الجوهرية للارتقاء نحو الكمال في عالم الوجود (وهذه الحركة ليست حركة فيزيائية أو جسمية، ولكنها حركة نوعية تحولية، أي محاولة الارتقاء في مرتبة الوجود) تتحرك نحو الكمال للاقتراب من الكمال اكثر فاكثر، وتستمر بالارتقاء حتى تفقد ماديتها تحت ظروف معينة وتتحول الى وجود لا مادي. ولذا فليس هناك حد فاصل بين العقل (الروح والنفس) والمادة كما يتصور بعض الناس، ولكنهما درجتان من الوجود تربط بينهما الحركة الجوهرية.

وكلا الروح والنفس، وان كانتا لا ماديتين، ولكنهما يمتلكان علاقة مادية لانهما المرحلة العليا لكمال المادة في حركتها الجوهرية. فالمادة عندما تمتلك الكمال تتحول الى روح ونفس".

وبهذا الادراك لمفهوم الروح والمادة فان العلاقة بين المادة والعقل وتأثير أحدهما في الآخر يمكن فهمه بدون أي صعوبة. ذلك لأن العقل ليس شيئاً منفصلاً عن المادة ولكنه صورة مادية بعد الارتقاء الى عالم الكمال من خلال الحركة الجوهرية والفرق بين العقل والمادة يمكن تصوره كالفرق بين درجة الحرارة العالية ودرجة الحرارة الأقل منها بدرجة واحدة. وهذا لا يعني أن العقل هو من نتاج المادة ولكنه نتاج حركتها الجوهرية نحو الكمال.

والحركة الجوهرية لا تنبع من المادة نفسها لأن الحركة هي خروج الشيء من القوة (الامكان) الى الفعل (الحدوث) تدريجياً. والقوة (الامكان) لا تصنع الفعل (الحدوث)، وكذلك فان الممكن لا يصنع الواقع. ولذا فان الحركة الجوهرية لها سببها خارج نطاق المادة المتحركة. والعقل هو نتيجة هذه الحركة، والحركة هي الجسر الذي يربط بين المادة والروح.

---

[20] انظر المصدر ٨

لذا فان الحركة بالضرورة تنتج من علة خارجية، والعقل (او الروح والنفس) هو محرك المادة. والعقل شيء حي (بموجب تعريف الحياة على أنها الادراك والوعي وقابلية الحكم). أما المادة فانها ميتة (بموجب تعريف الموت على انه فقدان الادراك والوعي وقابلية الحكم). لاحظ ان الحيوانات والنباتات حية، ولكن بدرجة أقل من الادراك والوعي وقابلية الحكم من الانسان. لذا فانها تمتلك الأرواح أيضاً، ولكن بدرجة أقل (لأن الوعي قليل أو منعدم). والعلة الخارجية هي الله الخالق لكل شيء.

وضمن هذا التفسير لا يوجد تناقض، سواء بين المادة والعقل، أو مع الاكتشافات العلمية مهما تقدمت في المستقبل.

وهذه النظرية تفسر كيفية اتحاد الحيمن والبويضة لتكوين الانسان. لانه اذا كانت الروح وحدة منفصلة عن المادة تصبح الحالة مستحيلة التفسير، وقد يكون هذا السبب هو الذي دعا بعض الفلاسفة، مثل القديس اكويناس، الى القول بأن الروح لا تنتقل مع الحيمن ولكنها تُخلق كشيء جديد مع كل انسان. ذلك لان القول بأن الروح تنتقل مع الحيمن يجعل السؤال التالي يطرح نفسه:

وماذا عن الروح في البويضة؟

فاذا قيل انها تمتلك روحاً ايضاً، فالسؤال يصبح: كيف يتحول الروحان الى روح واحدة في شخص واحد اذن؟

واذا قيل انها لا تمتلك روحاً، فالسؤال يصبح: اذا لم تمتلك روحاً فهي ميتة، واذاً كيف تتحول وتصبح حية؟

لذا فان اسلم السبل بالنسبة له هو القول بأن الروح تُخلق من جديد في كل انسان. وهذا الرأي جعل (رسل) يُعلق بكل سخرية بالقول[21]: "عندما يولد الانسان خارج نطاق الزواج، يبدو ان ذلك يجعل الله شريكاً في الزنا". ولو أن (رسل) كان قد رأى تفسير صدر المتألهين للروح وعلاقتها بالمادة لربما كان قد غير هذا الرأي.

٢-١٢ – اندماج روح الحيمن مع روح البويضة

ويبدو أن نظرية صدر المتألهين هي النظرية الوحيدة التي تفسر

[21] انظر المصدر ٣، ص ٤٤٩

كيفية اندماج الحيمن بالبويضة لكي يصبحا روحاً واحدة في النهاية، وتولد النفس. وعندما يبدأ المخلوق الجديد بالنمو (بعد الاخصاب) فانه ينمو جسدياً ويصبح اكثر تعقيداً. وكذلك نفسه تنمو ولكن ليس حجمياً، فليس هناك حجم لان النفس شيء لا مادي، ولكنها تنمو من ناحية انها تصبح اكثر تطوراً في مستوى الوجود (وهو ما يطلق عليه النضج). والمادة في تركيبها العضوي الجديد والمعقد تصبح تحت الظروف الملائمة لكي تتطور النفس التي في داخلها في مراتب الارتقاء (خلال حركتها الجوهرية) اكثر فاكثر نحو الكمال في عالم الوجود. وبطبيعة الحال فان النفس لا تصل الى الكمال المطلق لأن الكمال المطلق من صفات الخالق تعالى، ولكنها تصل الى مراتب أرقى بكثير من مرتبة المادة. و النفس في الانسان تصل الى مراتب أرقى من النفس في النباتات والحيوانات، الى أن تصل المستوى الذي تمتلك فيه الوعي.

والمادة تمتلك النفس بالقوة، ولكن هذه القوة لا تخرج الى الفعل من نفسها. لذا فان المادة لا تتطور الى كائن حي بنفسها مطلقاً. ولكن عند توفر الظروف الملائمة، وهي الترتيب العضوي للمادة ووجود الحياة، أو بكلمة اخرى وجود الروح والحركة الجوهرية التي تربط المادة بالروح، فان القوة تخرج الى الفعل، وتتكامل المادة حتى تفقد ماديتها وتتحول الى (النفس). وهذا يفسر كيفية نمو العقل ونضوجه عند نمو الجسم. وتستمر النفس (أو العقل) بالنضج والنمو تحت هذه الظروف بالضبط كما يتطور الجسم وينمو.

لذا فان وجود الحياة المسبق ضروري للتحول الذي يحدث للمادة نحو الكمال لكي تبلغ مراحل النفس. وهذه الحياة المسبقة هي التي تقرر الحدود التي يقف عندها تكامل المادة، سواءً تصبح نفساً نباتية، أو حيوانية أو انسانية. لذا فان نفوس النبات والحيوان والانسان تختلف بعضها عن بعض، ولكن بدرجة، أي بمستوى، وليس بالطبيعة (بنفس الطريقة التي تكوّن المواد العضوية المختلفة الأحياء المختلفة). وروح النبات هي الادنى بين مستويات الأرواح. وروح الحيوان اكثر تكاملاً من روح النبات. وروح الانسان أكثر تكاملاً من روح الحيوان. وعلى أي حال فان درجة التكامل لابد وأن تحملها الروح المسبقة كما تحمل الجينات المعلومات التي تحدد الخصائص والصفات الجسمية للكائن الحي. وبطريقة مشابهة فان الروح تمتلك مستويات مختلفة وكل روح تحمل مستواها الخاص بها.

٢-١٣ – اللبنة الاساسية واتحاد الروحين

بقي لنا ان نذكر شيئاً هنا وهو ان الخلية المخصبة بعد دخول الحيمن الى البويضة تحمل اللبنة الأساسية للحياة. أي الروح التي في داخلها هي اللبنة الأساسية للروح بالضبط كما ان الخلية تمثل اللبنة الأساسية للجسم، ويتم اتحاد الروحين لتكوين روح واحدة فقط في تلك الظروف الأساسية وهذه اللبنات الأولية سواءً الخلية او الروح التي فيها هي اللبنات التي يتم الاتحاد فيها ولا يتم الاتحاد الا في هذه اللبنات الأولية. وبعدها تتكون النفس ويبدأ الاثنان معاً، الخلية والنفس، بالنمو كلٌ في عالمها الخاص، الأولى في العالم المادي والثانية في العالم اللامادي، وكلاهما يأخذان من المادة التي هي ليست سوى لبنات الوجود التي تأخذ الشكل المحسوس والمرئي. وما نود ان نؤكده هنا هو ان نمو الجسم والنفس يتبع قوانين موضوعة من قبل الله تعالى الذي قال: " رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ "، سورة طه، الآية ٥٠.

وهو الذي وضع القوانين التي تسير عليها الأشياء. والتكاثر والنمو عبارة عن قوانين موضوعة من قبل الله تعالى لتحويل المادة الميتة الى كائن حي: " يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ"، سورة الروم، الآية ١٨. لأن المادة هي خلق الله وهو نوع من الوجود، وكذلك الروح والنفس نوع آخر من الوجود وليس من الصعب تصور تحويل مستويات الوجود من نوع الى آخر بإذن الله تعالى. وقد جعل الله ذلك تحت ظروف خاصة فقط، وهذه الظروف هي وجود الحياة والروح المسبقة.

يتضح اذن أن وجود الحياة المسبق ضروري لخلق الحياة الجديدة واستمراريتها وتحديد مستواها في مراتب الوجود. وهذا معناه أن وجود الروح شرط أساسي لإنتاج الأرواح (والنفوس) الجديدة من المادة (أي استخراج الفعل من القوة). لذا نستنتج ان الحياة الأولى لابد وأنها خلقت بواسطة عقل اكثر رقياً وتطوراً.

ان الروح والمادة عبارة عن وجهين لنفس الوجود. أحدهما سلبي (وهو المادة) والآخر فعال (وهو الروح). وكلاهما عبارة عن حلقتين في سلسلة الوجود المتصل. والوجود يجب ان يكون متصلاً ولا يُعقل ان يوجد عدم يفصل بين مستويات الوجود المختلفة (اذا كانت هناك عدة وجودات مختلفة).

وهذه النظريـة تعطي تفسيراً أفضل لكيفية اتحاد روحي الحيمن والبويضة حيث انهما يتحدان بنفس الوقت عندما تتحد المادتان المكونتان للحيمن والبويضة. وكذلك تعطي تفسيراً افضل لكيفية نمو العقل (النفس) ونضوجه حيث انه يتغذى على المادة التي تدخل الى الجسم على شكل غذاء، ويستخرج منها الظواهر التي تشكل لبناته الأساسية. (لاحظ ان العقل الواعي هو أعلى مراحل النفس. ولذا فان النفس، وان كانت موجودة في مراحل الجنين الأولى، الا ان العقل الواعي يبدأ بالنشوء بعد تكوين الآلة التي من خلالها يفعل، وهو الدماغ).

وبذلك فأن الغموض الذي يكتنف كيفية اجتذاب هذه الظواهر الى العقل قد تم اجلاؤه، بعكس نظرية (رسل). فالعقل ينمو بموجب هذه النظرية بواسطة نظام متطور مسيطر عليه باحكام، وفيه فان الذاكرة والعادات ليست الا فروع ولواحق (أو أجزاء مساعدة). وهذا يفسر ظاهرتي الحياة والعقل أفضل من تفسير (رسل) الذي يحوّل العقل الى شيء ليس اكثر من ظواهر عارية ليست ذات أهمية تذكر.

ونظرية الحركة الجوهرية تجعل من السهل تصور كيفية الحفاظ على الحياة في الفيروسات والحبوب والبيوض لفترات زمنية طويلة. وكيفية تأثير الروح والجسم في بعضهما البعض طالما انهما ليسا سوى درجتين مختلفتين لنفس الوجود مربوطتين باحكام، وهذا الاحكام يمثل الوجود المتصل للموجودات. وهي النظرية الوحيدة التي تفسر كيفية نشوء الحياة في الخلايا الحية الجديدة حيث ان هذه الحياة الجديدة استنساخ وليس انتقال من خلايا حية أخرى لان الخلية الأم لاتموت عند تكوين الخلية الجديدة داخل الجسم الحي.

وأخيراً، فانه من خلال هذه النظرية التي تربط المادة بالعقل بطريقة رائعة، نستطيع ان ندرك كيف يمكن للعقل ان يكامل نفسه تحت ظروف معينة ويصل الى المراحل التي يذوب فيها في حب الخالق ويصبح متصلاً به بعد أن يرتقي الى مراحل الكمال (أو المراحل القريبة من الكمال). وهذا ما يحدث للأنبياء والمعصومين. وهذه أعلى مراحل الكمال في عالم الوجود، ولا تحدث بصورة عشوائية، أو لاواعية، ولكنها تحدث بصورة واعية، أي ان التكامل يحدث للنفس بالفعل الواعي المتجرد عن الماديات الواطئة ونكران الذات الكلي، لان هذا التكامل يخص أعلى أنواع الوجود في الانسان وهو العقل الواعي.

ولكي يكامل ذاته الى حدود أبعد، فان وجودنا يرتبط بالمستويات

الأخرى من الوجود (الممكن وجودها) بطريقة تشبه الجريان، وفي النهاية فانها ترتبط بذات الله الذي ليس كمثله شيء، وهو النهاية. انه كل شيء ولذا لا يوجد شيء اسمه العدم لان ذلك يناقض الوجود المطلق لله تعالى. وولادة الكائنات الحية الجديدة هو تحويل ظواهر الوجود من نوع الى آخر، والتي تبدو لنا (بسبب محدوديتنا وجهلنا) أنها أشياء جديدة لم تكن موجودة من قبل.

ويجب ان لا يُفهم من ذلك ان نوعية وجودنا تشبه نوعية وجود الله تعالى او اننا امتداد لوجود الله، او أننا مع الله في شيء واحد. فهذه امور لانعلمها لاننا لانعلم ماهية وجودنا الا ان وجودنا يرتبط بالله من خلال الوجود المتصل اللانهائي بدون ان تكون هناك فجوة او فجوات من العدم تتخلل هذا الوجود المتصل لأن وجود العدم ينافي مطلقية الوجود التي نصف بها الله تعالى. لذا فأن الوجود متصل بالضرورة. أما كيفية الاتصال وأنواع مستويات الوجود التي هي أرقى من وجودنا فلا يعلمها الا الله تعالى الذي كوَّنها وخلقها، (والله اعلم).

بقي هنا أن نذكر شيئاً يخص الآية الكريمة[22] "وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ۖ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً"، فيقول بعض المفسرين انه لا سبيل لمعرفة الروح بدليل الآية الكريمة ولذا فان البحث فيها مسألة عقيمة ولا يجوز الدخول فيها. ولكننا نرى ان الآية تصرح بأن الروح من أمر الله فقط وهذا شيء لا يختلف عليه أحد من المؤمنين. ونحن لا نعلم كنه الروح بطبيعة الحال الا ان ذلك لا يمنع من محاولة اثبات وجودها بالطرق العقلية ومعرفة علاقتها بالمادة، رداً على ما يزعمه الملحدون الذين لا يقبلون بمنطق القرآن لانهم لا يعترفون بكونه كتاباً مقدساً، بشرط ان لا يتعارض منطقنا مع محكم التنـزيل.

٢-١٤ – نظام التشغيل

الشفرة الوراثية عبارة عن مجموعة من التعليمات والاوامر، وهي نظام معقد يمتلك مركز سيطرة وتحكم لاصدار الأوامر، ويمتلك ايضاً فروعاً لاستلام هذه التعليمات وفهمها والعمل بموجبها. وكل واحد من هذه الفروع مسؤول عن وظيفة معينة في الخلية، كالتغذية والتنفس الخ، وكل منها يعرف اي اوامر له او ليست له، وكيف ينفذ هذه الاوامر وكيف

[22] سورة الاسراء، الآية ٨٥

يؤدي وظيفته. اي انه يعرف واجباته وكيفية تأديتها.

وبالإمكان تصور نظام الشفرة الجينية على شكل نجمي حيث مركز التحكم في الوسط وله فروع كما في الشكل رقم (١). وفي هذا الشكل كل فرع يمثل وظيفة واحدة في الخلية، كالتنفس، والتغذية، وطرح الفضلات الخ.

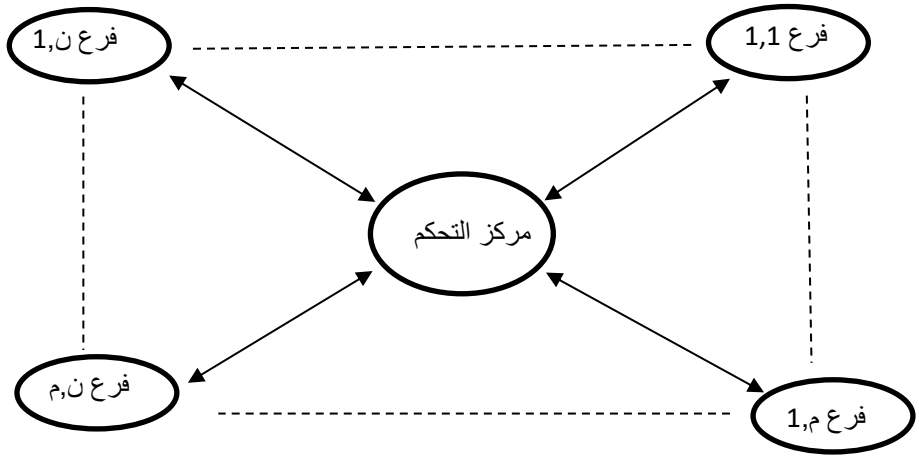

شكل رقم ١: تمثيل لمركز التحكم وفروعه للشفرة الجينية

من الواضح ان نظاماً معقداً كهذا يحتاج الى نظام تشغيل (كما هو موجود في الحاسبات الالكترونية على سبيل المثال). والسؤال هنا: ماهو نظام التشغيل للشفرة الوراثية؟ وهل بالامكان ان تكون الروح هي التي تشغّل الشفرة الوراثية؟

يبدو ان افتراض ان احدى وظائف الروح هو تشغيل الشفرة الوراثية ليس فيه تعارض او ضرر. وبطبيعة الحال فان هذا لايعني انه الوظيفة الوحيدة للروح، التي قد تقوم بوظائف اخرى اكثر تعقيداً.

٢-١٥ – هل نعرف جوهر وكنه المادة

الواقع اننا لا نعلم كنه الروح ولا نعلم كنه المادة وبالرغم من ذلك فان الانسان تكلم كثيراً عن المادة سواءً من الناحية الفلسفية او الناحية العلمية والتجريبية. وأولئك الذين يظنون اننا نعلم كنه المادة هم على خطأ

لان معرفة المكونات الصغيرة للمادة مثل الذرة والالكترون الخ هو الدوران في عالم المادة وليس الدخول الى كنهها.

٢-١٦ – الصور والمادة

وبالنسبة للكلام عن تبدل المادة مع بقاء الجسم يقول صدر المتألهين في الجزء الثاني من كتاب الاسفار: "فالفاعل الذي هو فوق المادة والغآية التي هي فوق المادة سببان بعيدان للموجودات المادية. ولو كان هذان السببان البعيدان كافيين لايجاد الموجودات المادية لكانت هذه الموجودات المادية باقية دوماً ولا تنالها يد الفناء والعدم، ولكانت محتوية منذ البدآية على الكمالات اللائقة بها، ولأمسى أولها عين آخرها، ولكن هذين السببين البعيدين غير كافيين وانما هناك سببان قريبان يؤثران أيضاً وهما المادة والصورة، فمن جهة الصور يحكم التضاد وتقبل الكيفيات الأولية الفساد، وكل مادة لها قابلية الصور المتضادة، ولهذا فأن أي موجود يملك نوعين متضادين من القابلية ولونين متضادين من الاقتضاء، احدهما من ناحية الصورة والثاني من جهة المادة . فالصورة تقتضي أن يكون الموجود باقياً ومحافظاً على وضعه، أما المادة فتقتضي أن تتغير حالته وتوجد فيه صورة أخرى مضادة للصورة الأولى. ولما كان من المستحيل تحقق هذين الاستحقاقين والاقتضاءين المتضادين في شيء واحد (وفي نفس الوقت) فلهذا لا يمكن أن تكون المادة محتوية على صور متضادة في آن واحد، والعطاء الالهي يوجب تكميل مادة هذا العالم الذي هو أسفل العوالم بواسطة الصور، ولذا قدرت الحكمة الالهية أن تكون الحركة دورية والزمان غير منقطع والمادة متغيرة بحيث تتغير الصور على امتداد الزمان ويتبدل موقعها، وتحكم الضرورة أن تكون لكل صورة مدة معينة تختص بها فتستوفي كل صورة حصتها من الوجود.

ولما كانت المادة مشتركة فكل صورة لها حق في الصور الأخرى بحيث يناسب أن تعاد الى صاحبها، فالعدل يوجب أن تعطى مادة هذه الصور لتلك ومادة تلك لهذه، وعلى هذا الترتيب تنتقل المادة خلال الصور يداً بيد، ولهذا السبب يقتضي العدل ورعآية الاستحقاق أن يقوم نظام العالم على بقاء الأنواع لا الأفراد".

انه فهم عميق ورائع لمعنى الوجود !! ويمكننا أن نفهم معنى كلام هذا الحكيم الذي بلغ ذروة الحكمة ومنتهاها على مستوى الفلاسفة

بواسطة مثال الشجرة والحيوان والانسان. فالمادة تنتقل من الأرض الى الشجرة ثم الى الحيوان ثم الى الانسان ثم الى الأرض مرة أخرى. وهنا فان المادة تنتقل بين الصور، والصور هي الشجرة والحيوان والانسان. فكل صورة توجد لفترة معينة من الزمن ثم تختفي، ولا تستطيع نفس المادة أن توجد ضمن أكثر من صورة واحدة بنفس الوقت. لذا فان التناقض قد يحدث بين الصور، ولكن ليس ضمن المادة.

قارن هذا المفهوم الحكيم مع ما قاله (برتراند رسل) بصدد عدم رجوع الجسم بعد الموت لأن مكونات الجسم تتغير ثم انظر كيف ان (رسل) فاته ادراك الفرق بين المادة والصور.

٢-١٧ – عودة الى التطور

اذا كان العقل والمادة يتكونان من نوعين من الظواهر المختلفة، فان القول بأن هناك تطوراً، وليس خليقة، معناه القول أن الظواهر المكونة للعقل في خلق مستمر وان العلاقات التي تربط بينها تُمسي اكثر تطوراً باستمرار أيضاً ولأسباب مجهولة. وهذا التطور معقد جداً ويدفع باتجاه الأحسن فالأحسن. وبكلمة اخرى، هناك بناء مستمر لأنظمة اكثر تطوراً. واذا كانت هذه الأنظمة غير مخطط لها فان معنى ذلك ان ما كان موجوداً في البداية ليس سوى ظواهر من نوع ما، وهذه الظواهر بدأت ترتبط ببعضها البعض بطريق الصدفة المحضة لتكوين المادة ثم الحياة ثم العقل، والعملية لا زالت مستمرة. وبذلك فان هذا التطور هو نتيجة للعشوائية العمياء. ولكننا قد نتساءل:

من أين أتت الظواهر الأساسية الأولى التي كونت الوجود في المراحل اللاحقة؟ ومن أين أتى مفهوم العشوائية؟ ونحن نستطيع أن نحدد خمسة أشياء كان يجب أن توجد في البداية:

1. **الأول** هو الظواهر،
2. **والثاني** العشوائية،
3. **والثالث** القابلية والاستعداد الذاتيين لهذه الظواهر لكي ترتبط لتكوين الأنظمة،
4. **والرابع** هو مفهوم النظام،
5. **والخامس** هو الصدفة.

ولوكان أحد هذه الأشياء مفقوداً لما كان باستطاعة المادة الأساسية للوجود أن تصنع العالم، الا اذا فرضنا عدم وجود أي شيء في عالم الوجود على الاطلاق، والذي كنا قد برهنا عكسه حيث يجب أن يكون هناك شيء ما في الوجود ولا يمكن ان نكون نحن عدماً، لأننا اذا كنا عدماً سوف لن يكون بامكاننا معرفة الوجود والتكلم عنه، ولا حتى العدم. ولما كنا ندرك الوجود فلابد وأننا موجودون لان ادراك الوجود من خصائص الموجود.

وعلى أي حال يتضح ان الأشياء الخمسة الأساسية، ولسبب مجهول، أنتجت نظاماً متطوراً الى الدرجة التي صُنع فيها العالم الذي نعرفه.

ولكن كيف ولماذا ظهر مفهوم النظام الى عالم الوجود؟

أننا تعلمنا أن نفهم العشوائية على أنها عكس النظام وهذا ما يعنيه التعبير نفسه. ولذا لابد وأن يكون هناك نوع آخر من الوجود ما فوق الظواهر الذاتية واستعدادها للارتباط، وهذا النوع من الوجود اكثر تطوراً من هذه الأنواع الخمسة من الموجودات بالضرورة، وهو الذي شكلها باسلوب معين، مستخرجاً الفعل (الحدوث) من القوة (الامكان)، والواقع من الممكن، لتكوين الكون. والسبب في ذلك هو أن القوة (الامكان) وحدها لا تصنع الفعل، والممكن وحده لا يصنع الواقع.

٢-١٨ – كيف نبرر ان الروح والنفس تخلقان من المادة

في الواقع ليس هناك من يعرف ماهية الروح والنفس ومن اين تأتي، ولا يعرف هذه الأمور سوى الخالق جَّل وعلا. والآراء المطروحة (كما هو معلوم) ليست سوى محاولة تقترب من التفسير الذي يعتمد على المنطق، وبنفس الوقت لا يناقض ما جاء في القرآن الكريم. ودليلنا على خلق الروح من المادة هو تكاثر الروح عن طريق التناسل ونضوج النفس بمرور الزمن بالرغم من عدم ادخال الانسان (او المخلوقات الاخرى) شيئاً آخر الى جسمه عدا الطعام، والذي هو مادة. هذا بالاضافة الى ان المادة هي الأخرى من خلق الله، وعلى هذا فهي شيء مقدس. ونحن نقدس الأنبياء روحاً وجسداً.

وقد أمرنا الاسلام باحترام الجسد سواءً عندما تكون الروح فيه او بعد الموت. والدليل الآخر نستطيع استكشافه في كتاب الله العزيز في آيات كثيرة قال تعال: " يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ"، سورة الروم - الآية ٢٠. وكذلك: "ومن آياته ان خلقكم من تراب ثم اذا أنتم بشر تنتشرون"، سورة الروم - الآية ٢٠.

ومن الواضح ان آيات القرآن الكريم صريحة في خلق آدم على هيئة آدم جسداً وروحاً، قال تعالى: "إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (71) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ" سورة ص – الآيات ٧١ – ٧٢.

وهكذا كان خلق آدم الذي نفخت فيه الروح الأولى، ولكن عندما يتكلم القرآن عن خلق السلالة البشرية من آدم فان الآيات تقول: "ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين، ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين"، سورة المؤمنون- الآيات ١٢ – ١٤. "ثم أنشأناه خلقاً آخر قد تعني بث الروح فيه!!!!"

هنا فان الآيات الكريمة تتكلم عن خلق الانسان من سلالة آدم من طين، ولا تصرح بان الله تعالى ينفخ الأرواح في الناس كما نفخ الروح في آدم. لاحظ اللفظ القرآني " خلقنا الانسان " وليس الجسد وحده، ومن المعلوم فان لفظ الانسان يطلق على الانسان ككل (الروح مع الجسد) وليس الجسد وحده، فالقرآن نزل بلغة العرب، والعرب لا يسمون الجسد إنساناً، فعند الموت يسمى الميت "جنازة". فالانسان عبارة عن مصنع لتحويل المادة الى حياة وروح ونفس.

والواقع فان هذه المسألة يمكن تصورها بكل بساطة خاصة اذا عرفنا ان الوجود متصل بكل أنواعه وليس هناك عدم يفصل بين مستويات الوجود لكي يفصل بين المادة والروح والنفس. والله تعالى خلق آدم مرة واحدة على هيئة الانسان جسماً وروحاً و ونفساً، الا أن الأجيال التي بعد آدم لا يخلقها الله تعالى جسداً مرة واحدة ولكن بصورة تدريجية خلال التناسل كما تصرح الآية الكريمة وكما نلاحظه على ارض الواقع. ونفس الشيء يمكن ان يقال عن الروح، فالله تعالى نفخ الروح في آدم عند خلقه كما خلق جسده مرة واحدة، ثم اوجد النفس من الروح والنفوس في الأجيال بعد آدم تبدأ صغيرة كما يبدأ الجسد صغيراً ثم تنمو وتتعقد كما ينمو الجسد ويتعقد.

وفي اعتقادنا فان النفس تتكون من نظام معقد ذي عدة مكونات كما يتكون الجسد من عدة أعضاء معقدة التركيب. وتبدأ باللبنة الاولى للنفس كما يبدأ الجسد باللبنة الأولى (وهي الخلية). وكما ان الحيمن يكون نصف الجسد في الانسان الجديد وتكون البويضة النصف الآخر، فان الروح الموجودة في الحيمن تكوّن نصف روح الانسان الجديد وتكوّن الروح التي في البويضة النصف الآخر. وهكذا يبدأ الانسان الجديد في النمو بعد ذلك، ولكي ينمو فانه يأخذ المادة ويحول بعضها الى روح ونفس بارادة الله تعالى، فهذه سنة الله في خلقه، وهو القائل: " قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ"، سورة طه، الآية ٥٠. فكما ان الله تعالى وضع قوانين الفيزياء والكيمياء التي تحكم المادة فانه وضع قوانين الحياة ايضاً.

ان النمو التدريجي يسري في جميع الاحياء، فكل الكائنات الحية تتكاثر بطريقة أو بأخرى، وكلها تبدأ صغيرة وبسيطة ثم تنمو الى كائن اكثر تعقيداً وأكبر حجماً بالرغم من ان الله تعالى خلقها كلها، ويبدو ان سنة الله في خلقه هي هكذا بالنسبة للكائنات الحية وليس هناك ما يدعونا لان نتصور العكس بالنسبة للنفس.

والروح تتكاثر أيضاً كالأجساد، اما النفس فانها تبدأ صغيرة وبسيطة ثم تنمو في عالم الوجود وتصبح اكثر تعقيداً، قال تعالى: " أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً "، سورة النساء - الآية ١.

ونحن في الواقع نلاحظ ذلك في الحيمن ثم في الجنين ثم في الطفل الصغير ثم سمو النفس عند المؤمنين وخاصة في الأنبياء والصالحين. وسمو النفس عملية تدريجية، ومن المعلوم فان سمو النفس هو ارتقاؤها في عالم الوجود، والارتقاء هو تطور وتعقيد والتطور يأتي نتيجة تحولات معينة، وهذه التحولات تتضمن إضافات، والاضافات في عالم الوجود لابد وان تأتي من جهة معينة. وبما ان الانسان يدخل الى جسمه الغذاء فقط فلابد وان هذه الاضافات تأتي من الغذاء وهو المادة، والجسم يستعمل المادة لنمو اعضائه وكذلك لنمو النفس.

ولما كنا لا نعرف كنه المادة ولا كنه الروح او النفس، فاننا لا نعرف الصلة بينها. ولذا فان الغاء امكانية تحول أحدهما الى الآخر جهل بحقائق الأمور لأنه ليس هناك ما يدعو الى عدم امكانية هذا التحول.

وبطبيعة الحال فان هذا التفسير لا يلغي التفسيرات الأخرى الممكنة، وكلها بالتالي ليست سوى تفسيرات تعتمد على قناعات معينة وكلها

تشترك في شيء واحد وهو ان الحقيقة لا يعرفها سوى الله تعالى.

اما معجزة خلق عيسى (ع) فانه من الواضح ان الله تعالى يخلق ما يشاء وكيف يشاء، وهذه المعجزة خروج عن قانون التكاثر الذي سنه الله تعالى. وخلق عيسى كخلق آدم (ع) ولاشك بان الله تعالى على كل شيء قدير. قال تعالى: "إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ۖ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ"، سورة آل عمران، الآية ٥٩.

الفصل الثالث: الصفات الالهية

٣-١ – تعريف الله تعالى

عندما نتكلم عن تعريف الله تعالى فاننا لا يمكننا أن نُعرّف ماهيته، فهذا شيء لا يمكن لأي شيء أن يصل اليه سواه. وما نستطيع أن نتكلم عنه هو صفات الله وكونه خالق كل شيء والمالك لهذا الكون وهي صفات كافية لتعريف ذاته بقدر فهم الانسان. فنقول انه ليس مادة ولاطاقة ولاشيء مما نعلم، وأنه خلق كل شيء، وانه مطلق الكمال، وبدون نقص أياً كان نوع هذا النقص، وانه لا يحتاج الى أي شيء لأن من يحتاج الى شيء خارجي ليس ألهاً. ذلك أن الحاجة هي السعي نحو تعويض خسارة أو شيء مفقود، والخسارة نقص، والله كامل ليس فيه نقص.

ويوصف الله تعالى بصفات عديدة مثل:

- الوحدانية،
- العظمة،
- والعدالة،
- والجمال،
- والرحمة،
- والعلم،
- وبالقول أنه مصدر الخير،
- وليس فيه شر لأنه ليس بحاجة الى اي شيء حيث انه خلق كل شيء وقادر على أن يفعل كل شيء،
- وهو موجود بدون الأشياء كلها،
- وهو الخالق الوحيد،
- وكل الأشياء الأخرى مخلوقة.

ولكن هناك من يعترض على القول ان صفات الجمال والعظمة والعدالة والرحمة... الخ، كلها موجودة في الانسان وهو الذي ينسبها

الى الله. وهنا يمكننا القول بثلاثة أشياء:

الأول، ان الانسان لا يمكنه أن يصف الله باستعمال مفاهيم لا يعرفها (هو نفسه).
الثاني، ان الانسان لا يستطيع استعمال أوصاف لا توجد في عالمه لوصف الله تعالى لانه لا يعي تلك المفاهيم ولا يمكن للآخرين أن يفهموها.
الثالث، بما أن الله خلق الانسان على درجة كافية من الذكاء فانه بالامكان ايداع مفاهيم هذه الصفات عنده لكي يستطيع أن يتعرف على الخالق.

وبخلاف ذلك فان الانسان لن يكون قادراً على التعرف على خالقه، وقد يمتلك الله صفاتاً أخرى لا نعرفها لأننا لسنا بحاجة لمعرفتها، وليس مهماً أن نعرفها لانه ليس من المتوقع أن نعرف كل شيء وليس هناك ما يدعو الى ذلك ولسنا مكلفين بذلك. وحتى لو عرفناها فاننا سوف لن نفهمها لعدم وجودها في عالمنا أو في تصوراتنا.
ولتوضيح النقطة الأخيرة نضرب مثلاً بسيطاً هو محاولة شرح نظرية علمية معقدة لشخص أمي لا يمتلك المعرفة أو الخلفية العلمية التي تؤهله لفهمها.
ويمكننا هنا التأكيد على أن صفات الله تعالى التي ذكرناها هي بعض صفاته لانها لا تناقض ما خلق من الأشياء. وهو الذي وضع بعضها فيما خلق. ولما كان الانسان مخلوقاً واعياً وذكياً فقد مكّنه الله من ادراكها.

٣-٢ – هل ان الله مخلوق؟

من أهم الأسئلة التي تطرح دائماً هو السؤال التالي: اذا كان الله قد خلق كل شيء فمن خلق الله؟
و (برتراند رسل)، وكان فيلسوفاً ملحداً، سأل هذا السؤال الذي سأله قدامى الوثنيين ايضا. ولما كان الجواب على السؤال مستحيلاً فان الماديين والملحدين يتخذون ذلك تبريراً معقولاً للاستنتاج الذي ينتهون اليه بأن الله ليس موجوداً. ولكن تبريرهم هذا ليس معقولاً أبداً لأنه في حالة استحالة معرفة الجواب لهذا السؤال فان ذلك بحد ذاته ليس برهاناً

على عدم وجود الله. وكل ما يعنيه هو أننا لا نعرف الجواب. وعدم معرفة الجواب لأي سؤال كان لا يقود الى استنتاج شيء آخر. بالاضافة الى ذلك أن الايمان بعدم وجود الله يجب أن يكون نتيجة لبرهان عدم وجوده، وليس فقط عدم المقدرة على برهان وجوده.

ونحن هنا سوف نحاول أن نبحث في تعقيدات هذا السؤال التي لا يعيها الملحدون بالرغم من ادعائهم العلمية. ولكي نفعل ذلك نرجع الى أنواع الأجوبة الممكنة للاسئلة التي تطرح، والتي ذكرناها سابقاً.

فالجواب المباشر غير ممكن لهذا السؤال لاننا لا نعرف كنه الله تعالى وليس هناك من طريق للرجوع بالزمن الى ما قبل خلق الكون لنتعرف على ما كان يحدث قبل خلق الزمان والمكان (ان كان هناك زمان ومكان قبل زماننا ومكاننا)، ولا نستطيع الخروج من هذا الكون لنرى ما يوجد خارجه (ان كان هناك ما يشبه المكان الذي نعرفه).

النوع الثاني من الجواب هو فرض العكس أو النقيض وايجاد حل له ثم استنتاج الجواب لسؤالنا. وواضح ان هذه الحالة لا تنطبق على سؤالنا.

بقي النوع الثالث من الاجابة وهو امكانية أن تكون هناك افتراضات في السؤال تجعله سؤالاً غير منطقي أو تجعله يحمل تناقضاً. وهذا ما سنناقشه الان.

نرجع الى تعريف الله تعالى، حيث قلنا انه خلق كل شيء بما في ذلك المكان والزمان والمادة والطاقة والحياة التي نعرفها على الأرض (وربما حياة أخرى في مكان آخر) الخ. وعليه فهو لا يخضع لقوانينها لأنه موجود بدونها حيث أنه هو الذي أوجدها.

اذن ان الله لا يخضع للزمان والمكان. وعند تمحيص السؤال المطروح نستطيع ملاحظة وجود تسلسل زمني يتضمنه السؤال ويتضمن أن الله خاضع للزمن. فالسؤال من الذي خلق الله يتضمن ان هناك شيئاً آخر كان موجوداً قبل وجود الله وذلك الشيء هو الذي أوجد الله في فترة زمنية لاحقة. كما ان السؤال يتضمن أن الزمن يسري ليس فقط على الله بل على خالقه الذي نريد معرفته حيث أنه لم يكن قد خلق الله في الفترة الزمنية قبل خلقه له. لذا فهو يعيش تحت قانون الزمن الذي يسري عليه أيضاً.

والسؤال في الواقع يفرض ان الزمن قانون مطلق وأزلي وليس قانوناً مخلوقاً، وان الزمن موجود قبل وجود أي شيء وان كل شيء يخضع له. وهذا ليس صحيحاً، فالزمن ليس سوى صفة من صفات

عالمنا ووجه من وجوهه، وهو عبارة عن تأثير يعتمد على سرعة المشاهد وسرعة الضوء، ويمكن أن يكون صفراً (نظرياً)، أي ينعدم، وكما انه لا يوجد شيء بدون وجود عالمنا، لا حجر ولا أرض ولا شمس ولا قمر، ليس هناك زمن ايضاً.

فالسؤال اذن يتضمن افتراضات خاطئة تجعله خطأ لا يمكن قبوله وليس له جواب لأنه ليس سؤالاً. وهو يشبه السؤال عن اللغة التي تتكلم بها الذبابة. والملحدون عليهم أن يبرهنوا أن الزمن قانون أزلي قبل طرح السؤال. وهم يؤمنون بالعلمية ولكنهم بعيدون عنها، وهم غافلون عن ذلك.

٣-٣ – الله الحي القيوم

اذا كان الله لا يخضع للزمن فهو حي قيوم. وهو الأول قبل كل شيء والآخر بعد فناء كل شيء. وفناء كل شيء معناه فناء الكون وما فيه والله خالق الكون وما فيه، فهو موجود بدونه. والقول أن الله موجود قبل كل شيء وبعد فناء كل شيء قول نسبي (بالنسبة لنا) لأننا لا نفهم قياس الأمور الا بالزمن. والزمن مخلوق كما نحن مخلوقون ويفنى كما نفنى وفناؤه لا يؤثر على وجود الله، وليس لوجود الله علاقة بالزمن سوى انه خالقه. فالله تعالى دائم البقاء.

٣-٤ – الله عالم الغيب

اذا افترضنا (وفرض المحال ليس محالاً) ان مشاهداً تحرك بسرعة أسرع من سرعة الضوء فانه (نظرياً) يستطيع أن يرى المستقبل والماضي. ولما كان الله هو الذي خلق الضوء والزمن فانه يستطيع أن يرى (أو بتعبير أدق يعلم) ويقدّر ما سيحدث مستقبلاً بالنسبة للزمن (او في الحقيقة لما كان الله خالق كل شيء فهو يقدّر ما يحدث وكل شيء خاضع لقدرته). ولذا فهو يعلم المستقبل، بل انه هو خالق المستقبل، وليس هناك ما هو عجيب في ذلك بل ان تصور هذا الموضوع سهل.

وكلمة "نظرياً" التي استعملناها هنا تنطبق على حالتنا نحن الخاضعين لقوانين هذا الكون لأن أجسامنا تتكون من المادة. ولكنه ليس نظرياً بالنسبة لشيء لا مادي. وكما تقول لنا النظرية النسبية في الفيزياء،

فان سرعة الضوء هي الحد الأعلى لسرعة حركة المادة، ولكنها ليست الحدود لما هو لا مادي. فليس من الضروري أن تكون هناك أي حدود لسرعة حركة الأشياء اللامادية (وهي حركة لامادية في عالم الوجود)، أو الأشياء التي تتكون من نوع آخر من الوجود الذي لا يخضع لقوانين كوننا الفيزيائية. وقد لا تكون هناك ضرورة للحركة لما هو لا مادي لأنه لا يحتاج ان يشغل فراغاً معيناً ثم يتحرك فيه ليشغل فراغاً آخر. فالموضوع بالنسبة له قد يأخذ أشكالاً وادراكات من نوع آخر لا نألفه نحن البشر على الأرض.

٣-٥ – الله والنوم والموت

هل ان الله ينام؟ وهل يستطيع الله أن يميت نفسه؟

كثيراً ما يسأل الناس أسئلة كهذه ويفكرون في هذه المواضيع، خاصة الماديون والملحدون منهم ويتأثر الكثيرون بهم. ولذا فان الدخول في هذه المواضيع، وان كان شائكاً، لا يخلو من فوائد في توضيح بعض المسائل المهمة.

وبالنسبة للسؤال الأول نستطيع القول انه وبموجب تعريف الله على انه خالق الأشياء كلها وانه ليس بحاجة الى شيء، فانه لا يحتاج الى النوم. وهذا الجواب يكفي، وسوف نتطرق الى هذا الموضوع من وجهة نظر أخرى قريباً. وقبل الخوض في موضوع الموت لابد من التعرف على بعض المفاهيم المهمة المتعلقة به لتوضيح الفرضيات التي تتضمنها هذه الأسئلة. وهذه المفاهيم هي:

- تعريف الكائن الحي بموجب مفهومنا البشري.
- ماهية الموت.
- ماذا يحصل للكائن الحي عند الموت.

وبعد توضيح هذه المفاهيم نستطيع أن نحدد فيما اذا كان الله بحاجة الى النوم أو أنه خاضع للموت. فاذا كان الله لا يخضع لقانون الموت فان الأسئلة أعلاه تصبح لا معنى لها سوى انها جمل لغوية لا تحمل أي أهمية فكرية.

٣-٦ – المحرك

الكائن الحي هو الكائن الذي يتحرك ويتنفس ويتغذى وينمو ويتكاثر الخ. والموت ظاهرة تصيب الكائن الحي فيفقد قابليته على الحركة والتنفس والتغذي والنمو والتكاثر الخ. وتفقد خلاياه قابلية الدفاع عن نفسها ضد الأحياء المجهرية والكائنات الحية الأخرى فيتفسخ الجسم ويتناثر ويرجع الى مكوناته المادية الأولية. هذه ظواهر مادية لا جدال فيها.

ولكن الكائن الحي ليس فقط مادة. فالمادة وحدها لا تتحرك أو تتغذى أو تتكاثر. ولذا فانه يتكون من مادة ومحرك لتلك المادة. وهذا المحرك هو الفرق بين الحياة والموت. والكائن الحي يفقد ذلك المحرك عند الموت او ان المحرك يفقد سيطرته على الجسم المادي للكائن الحي.

فما هو هذا المحرك؟ وماذا يحدث له عند الموت؟

ان المسالة التي يجب توضيحها هي ان هذا المحرك كان موجوداً في الجسم الحي، وبعد الموت لم يعد موجوداً فيه، أو ان له سلطاناً وتأثيراً على المادة التي نسميها الجسم وبعد الموت يفقد سلطانه هذا.

ويقول بعض الناس انه ليس سوى تنظيم معين للخلايا والحوامض الامينية والبروتينات والـ DNA فيها. وعندما يفقد الكائن الحي هذا التنظيم يتوقف عن الحركة ويموت. ولكن هذا ليس تفسيراً للموت، بل هو وصف لما يحدث للجسم المادي عند الموت. وتجدر الاشارة هنا الى ان هذا التنظيم موجود في جميع الخلايا الحية، وعند الموت تفقد جميع خلايا الجسم هذا التنظيم مرة واحدة بحيث لا تجد خلية واحدة في الجسم الميت باقية على ذلك التنظيم، بل لو فحصت جميع الخلايا لوجدت ان التنظيم قد دُمِّر. والذي يلاحظ هنا أن عملية تدمير هذا التنظيم عملية منظمة وتسري على جميع الكائنات الحية بنفس الطريقة والمقدار.

فما هو سبب هذا التنظيم؟ ومن الذي يحافظ عليه طالما الكائن الحي حياً؟ ثم ما هو سبب تدميره عند الموت؟

ان الكلام عن هذا التنظيم وسبب وجوده وسبب تدميره لا يختلف عن سبب الحركة في الكائن الحي وسبب توقفها عندما يموت الكائن

الحي، وعن سبب عدم تفسخ جسم الكائن الحي وسبب تفسخه بعد الموت. الا أن الفرق هو أن هذا التنظيم لا يمكننا ملاحظته بالعين المجردة، ولكن توقف الكائن الحي عن الحركة وتفسخه يمكن ملاحظتهما بالعين المجردة. لذا يتصور بعض الناس ان هناك فرقاً بين تلك الظواهر، وأن وجود تنظيم الخلية وحوامضها وبروتينها والـ DNA الخ أو عدم وجود هذا التنظيم هو سبب الحياة أو الموت.

ولكن الحقيقة أن الحياة هي سبب ذلك التنظيم، وأن هذا التنظيم والحركة والنمو والتكاثر الخ كلها من ظواهر الحياة، وان تنظيم الحوامض الامينية في الخلايا أو تدميره ليس سبباً في الحياة أو الموت، ولكنه أحد ظواهر الحياة والموت، والفرق بينهما بالضبط كوجود الحركة أو عدم وجودها في الكائن عند الحياة أو الموت. وهذه ظواهر مادية بأجمعها.

نرجع الى سؤالنا مرة أخرى، ما هو المنظم ومن هو المحافظ على ذلك التنظيم؟ وماذا يحدث له عند الموت؟ شيء أكيد يمكن قوله هنا وهو أن التنظيم (وليس الشيء الذي يتم تنظيمه) هو شئ لامادي بطبيعته وانه ينهار عند الموت.

نستنتج اذاً ان للموت ظاهرتين تبعاً لما تقدم:

الظاهرة الاولى، بموجب التعريف المادي، هي توقف الجسم عن الحركة والتكاثر والنمو الخ.
والظاهرة الثانية هي فقدان محرك المادة لسيطرته على تلك المادة.

ولكن أين يوجد هذا المحرك؟ هل هو في داخل الجسم أم في خارجه؟ هناك احتمالان:

الاحتمال الاول: المحرك موجود داخل الجسم: الاحتمال الاول ان محرك المادة موجود داخل الجسم عندما يكون الكائن حياً، وعند الموت يفقد الجسم هذا المحرك. عندئذ نسأل الأسئلة التالية: أين يذهب هذا المحرك؟ هل يبقى في عالمنا هذا (الذي يتكون من مكان وزمن) أم أنه ينتقل الى عالم آخر؟
(لاحظ أننا هنا استعملنا مصطلح "ينتقل" بدلاً من "يرتحل" لان

الارتحال دائماً يتضمن حركة ويتطلب زمناً ومكاناً ويستخدم لتوضيح تغيير المواضع، والذي ربما ليس ما يحدث عند الموت. فالزمان والمكان محدودان الى الوجود المادي. ومصطلح الانتقال قد يصف ما يحدث بصورة أفضل لانه انتقال نوعي خلال برزخ). وعلى أي حال فان السؤال الذي يتبع هو: ما هو ذلك العالم؟ وهل يحتوي على مكان وزمان مثل عالمنا؟ أم أنه وجود من نوع آخر لا يحتاج الى المكان والزمان؟

ويمكن القول هنا انه لما كان تأثير المحرك يسري في عالمنا من خلال الجسم، فان ترك الجسم يجعله غير مؤثر بالطريقة التي نتحسسها. وبما أنه ليست هناك أدلة على أن تأثيراً كهذا يسري خلال مادة أخرى (أي خلال جسم آخر) لاننا لا نرى الناس تُبعث من الموت بأجساد أخرى، لذا بامكاننا أن نفرض وبطمأنينة، ان المحرك يبقى معلقاً بشكل من الأشكال، واذا فرضنا انه يبقى في عالمنا فان ذلك يعني انه سيشغل حيزاً، والذي يتظمن انه جسم مادي. ولما كانت الحالة ليست كذلك لاننا نفرض أنه لا مادي، لذا فانه بالامكان أن نفرض انه ينتقل الى عالم آخر من الوجود.

وهذا الوجود الآخر هو نوع من الوجود ليس بالضرورة أن يكون منفصلاً عن عالمنا، ولكنه درجة اخرى من الوجود. ولا يستطيع المحرك أن ينتقل اليه طالما انه مرتبط بالجسم (أي بالعالم المادي). ولكن عندما ينقطع هذا الارتباط بواسطة الموت يصبح باستطاعته الانتقال الى العالم الآخر. وقد يستطيع ان ينتقل مرة أخرى الى عالمنا تحت ظروف خاصة. وبكلمة أخرى فان المحرك بامكانه أن ينتقل الى/ ومن العالم الآخر تحت ظروف خاصة. وما يفصلنا عن ذلك العالم هو حاجز نوعي لا تستطيع أجسامنا (أي المادة) أن تخترقه لان المادة ليست مخولة أو مؤهلة لتجربة كهذه، ولكن المحرك مؤهل لها.

وليكن ما قلناه كافياً الآن، وسوف نرجع اليه عندما نتكلم عن العلاقة بين الروح والمادة حيث أننا سنوضح هذا الموضوع بالتفصيل هناك.

الاحتمال الثاني: المحرك موجود خارج الجسم: الاحتمال الثاني ان محرك المادة لا يوجد داخل الجسم الحي ولكنه شيء خارجي موجود خارج جسم الكائن الحي وبطريقة ما يؤثر على جسمه (أو بتعبير آخر على هذه الكتلة من المادة التي نسميها الجسم) فيحركه ويسبب فيه النمو والتكاثر الخ. وهنا لدينا شيء أكيد وهو ان ارتباط المحرك بالجسم في

هذه الحالة، والوسط الذي يسري خلاله تأثير هذا المحرك على الجسم، ليس ارتباطاً مادياً ولا وسطاً مادياً، والا لرأيناهما وللمسناهما. لذا يجب أن يكون ارتباطاً لا مادياً ووسطاً لا مادياً. وهنا نسأل السؤال التالي:

- أين يوجد هذا المحرك في هذه الحالة؟
- هل هو في عالمنا أم في عالم آخر؟
- وماذا يحدث له ولتأثيره عند الموت؟
- وهل هناك محرك واحد يحرك كل الكائنات الحية أم هناك محرك واحد لكل كائن حي؟

وفي الواقع فان الجواب على هذه الأسئلة ليس سهلاً. ولكن ما يمكن التأكيد عليه هو:

- أن الارتباط بين الجسم ومحركه ينقطع عند الموت.
- إن لكل كائن حي محركه، وذلك بسبب اختلاف رغبات الكائنات الحية وتعارض متطلباتها التي تدفعها لقتل بعضها بعضاً للحصول على الغذاء أو غيره وتدمير بعضها بعضاً.

ولعل ذلك أوضح ما يكون عند الانسان حيث نجد الناس مختلفين في آرائهم الى حد التناقض في كثير من الأحيان، ويتصارعون حتى الموت وبعضهم يتلذذ في قتل الآخرين أو انزال الالم بـهم. فلو كان المحرك واحداً لجميع الكائنات الحية لَسَيَّرها بطريقة أفضل للجميع دون اللجوء الى الدمار والقتل والآلام، لان هذه الآلام تصيب ذلك المحرك نفسه وليس من المعقول أن يسبب المحرك تعاسة نفسه وآلامها لعدم ضرورة ذلك.

كذلك عندما يتلذذ جسم ما بانزال الالم بجسم آخر يحدث التناقض لان المحرك (اذا كان واحداً لجميع الأجسام) سيشعر باللذة والألم بنفس الوقت، أي انه سيكون سعيداً وتعيساً في الوقت ذاته، وهذا معناه وجود المتناقضين في شيء واحد ووقت واحد وهو مستحيل لان البديهيات العقليـة لاتقبل ذلك.

ومهما كانت الحالة فان المحرك شيء لا مادي وذلك لعدم امكاننا رؤيته أو لمسه، ولكن بالامكان رؤية تأثيره الذي هو الحياة. ولعله من

المناسب هنا أن نذكر ان هناك انواعاً كثيرة من الحياة على الأرض. وعادة فانها تصنف الى فيروسات وجراثيم وخميرة وفطريات ونباتات وحيوانات وبشر. وبعضها يتكاثر بالانشطار وبعضها يتكاثر بالبذور وبعضها يتكاثر بالبيوض وبعضها بالولادة. ويتكاثر بعضها بأشكال أخرى مثل أقلام النباتات والبراعم الخ. وبعضها يموت اذا قطع جزء مهم منه ولكن بعضها لا يموت حتى لو قطع معظمه. وهذه الأنواع كلها موجودة على الأرض.

وبعد أن قلنا كل هذا نرجع الى سؤالنا: هل يستطيع الله أن يميت نفسه؟

وللاجابة عليه، نقول: ان السؤال يحمل فرضيات كثيرة يجب تمحيصها أولاً والتأكد من صحتها أو عدم صحتها.

الأول: السؤال يتكلم عن الموت، وقد رأينا أن للموت ظاهرتين:

1-الأولى توقف الجسم عن الحركة والنمو والتكاثر الخ. فان كان هذا هو المقصود في السؤال فانه يتضمن أن الله جسماً مادياً. وهذا مرفوض لان الله هو الذي خلق المادة ولا يمكن ان يخضع لقوانينها كما رأينا.

2-الثانية فقدان المحرك (الروح) وتأثيره على الجسم، وهذا أيضاً يتضمن ان الله جسم مادي وفيه روح وهو مرفوض لنفس السبب السابق.

الثاني: ان الكلام عن موت الله يتضمن افتراض احتمال خضوع الله لقانون الموت. ولما كان هذا القانون من قوانين كوننا، ولما كان الله هو الذي خلق الكون ولا يخضع لقوانينه، لذا فالسؤال يتضمن افتراضاً خاطئاً، ولذا فانه مرفوض أيضاً.

الثالث: ان الكلام عن موت الله تعالى يتضمن افتراضاً هو أن حياة الله تعالى مشابهة لحياتنا على الأرض لان الموت هو نقيض حياتنا. ولما كانت حياة الله ونوع وجوده لا يشبه وجودنا بموجب تعريف الله الذي مر سابقاً. لذا فان السؤال يتضمن افتراضاً خاطئاً، واذاً فهو مرفوض أيضاً.

الرابع: ان الكلام عن موت الله يتضمن ان الله حي وبالامكان ان يموت بعد فترة زمنية معينة. وهذا تسلسل زمني، والذي معناه أن الله يخضع للزمن، وهو مرفوض أيضاً لان الزمن أحد قوانين الكون الذي خلقه الله كما مر سابقاً.

يتضح اذن، ان السؤال: هل يستطيع الله ان يميت نفسه، يحمل افتراضات خاطئة ويعتبرها بديهيات مسلم بها مما يجعله سؤالاً خاطئاً. لذا فليس هناك جواب. ومَثَله كَمَثَل السؤال: ماذا يلد الحجر والذي لا معنى له لان الحجر ليس كائناً حياً بالتعريف. فالسؤال عن موت الله ليس سوى جمل لغوية لا معنى حقيقي لها في عالم الوجود. فتفكر كيف يلحد البعض !

اما مسألة نوم الله تعالى، فانه من الواضح ان حاجة المخلوقات للنوم سببها اعياء الجسم والله لا جسم له فهو ليس بحاجة الى النوم.

ان المشكلة تكمن في محاولة الانسان تطبيق القوانين التي خلقها الله تعالى عليه (لاننا لانعرف غيرها) وهي محاولة خاطئة بطبيعة الحال، ولذا فانها لا تلتقي مع المنطق على أي أرضية كانت لانها تقع خارج عالم المنطق الذي خلقه الخالق الذي خلق كل شيء.

٣-٧ – خلود الانسان في الجنة أو النار

اذا أخرج الله تعالى الانسان من تأثير سلطان الزمن الذي هو ليس سوى قانون من قوانين كوننا، فان الانسان سوف يكون خالداً، وليس ذلك مستحيلاً على الذي خلق الانسان والزمن معاً.

ان الله تعالى جعل الزمن يحكم الانسان في هذا الكون وهذه الحياة وجعل الانسان خاضعاً له، وبالامكان أن يخرج الله الانسان من تأثير هذا القانون فيصبح الانسان خالداً. هذا على فرض فناء الزمن يوماً ما. ونحن لا نقول أن هذا ما يفعله الله جل وعلا، فانه هو وحده يعلم ما يفعل، ولا نقول أن هذا هو فعلاً ما سيحصل. ولكننا نقول بامكانية وقوعه وعدم تعارض امكانية هذا الوقوع مع المنطق.

٣-٨ – قدم العالم والعلم القديم

الفلسفات الاسلامية التي سادت العالم الاسلامي، وخاصة في فترة حكم العباسيين، افترقت في الاتجاهات الفلسفية لتفسير قِدَم علم الله وربطه بالزمن وسموه العلم القديم، ومفاده هل ان الله يعلم بالكون وجزئياته قبل خلقه كما يعلمها بعد خلق الكون؟ أم ان الكون الحاضر يختلف عن ما كان في علم الله قبل خلقه؟

والملاحظ أن الحديث في موضوع كهذا يفترض أن الله خاضع

للزمن، ويفترض أن الزمن موجود قبل خلق الكون. لذا فهو مرفوض من اساسه، فليس هناك قديم وجديد (أو حديث) بالنسبة لله. ان القِدَم زمن مقاس بالنسبة لنا ولا علاقة له بوجود الله وكينونته وعلمه.

ولقد كتب ابن رشد مقالته في فصل المقال عن موضوع قِدَم العلم هذا مدافعاً عن الفلاسفة ورداً على علماء عصره الذين اتهموا الفلسفة بالكفر مفنداً آراءهم مما يدل على تأثير المسألة وانشغال أصحاب الفكر فيها في ذلك الوقت. وبالرغم من أن ابن رشد دافع دفاعاً جيداً، الا أنه لم ينتبه الى أن الله لا يخضع للزمن وليس هناك علم قديم أو حديث. وليس هناك زمن قبل خلق الكون لان الزمن جزء من كوننا هذا، وأن القول بِقدم الله يتضمن سريان الزمن على الله، وهو غير ممكن (الا اذا كان القدم معناه عدم الخضوع للزمن).

٣-٩ – مسألة خلق القرآن

مسألة أخرى شغلت المسلمين وهي مسألة خلق القرآن، وهل أن القرآن ازلي في علم الله أم أنه خلق لحاجة البشر اليه ولم يعلم الله به من قبل؟ ان هذه المسألة، ومسألة العلم القديم، سببتا حروباً ومذابح بين المسلمين وكانوا كلهم في خطأ جسيم حيث افترضوا ان الله خاضع للزمن مثلما هم خاضعون له، فساووا بينهم وبين خالقهم من هذه الناحية، وهذا كفر، لقد كفروا دون أن يشعروا بذلك، وتقاتلوا وكفر بعضهم بعضاً، وراحوا يفسرون القرآن بما تشتهي أنفسهم وبما تصوروه صحيحاً. لقد اتبعوا الظن ولا يغني الظن من الحق شيئاً.

من هنا نرى أن أصحاب الفكر والفلسفة يخوضون في أمور كثيرة لاعتقادهم صحتها بسبب قلة المعلومات المتوفرة لديهم. ونرى أيضاً خطورة وجسامة أخطائهم والنتائج المترتبة على ذلك.

٣-١٠ – الخلاصـــة

يتكون الكون من مكان وزمان وحوادث متواصلة الحدوث. وبما ان الله هو الذي خلق الكون فلا يخضع لقوانينه. فهو لا مادي ولا يشغل حيزاً

وفراغاً معيناً ولا يخضع للزمن. لذا فلا بداية له ولا نهاية وهو حي لايموت، لان البداية والنهاية، مسائل نسبية زمنية. وليس له شبيه ولذا قال، جل من قال: "ولم يكن له كفوأً احد".

واذا كان الله لا يخضع للزمن وهو الذي خلق الزمن، فهو يعلم ما سيحدث في المستقبل لان المستقبل مستقبل بالنسبة لنا زمنياً وليس بالنسبة لله فهو خالق المستقبل . والله حي لا يموت لأن الموت يتضمن زمناً. كما أن خلود الانسان في الجنة أو النار أمر ممكن وذلك باخراج الانسان من سلطان الزمن. وليست هناك أهمية فكرية للكلام عن قِدَم العلم والعلم القديم، فليس هناك علم قديم أو حديث. والكلام عن قِدَم القرآن أو حداثته كالدوران في الحلقة المفرغة فليس هناك قرآن قديم أو حديث. ولا يمكن القول بأن الله قديم لأن ذلك يتضمن سريان الزمن على الله جل وعلى الا اذا كان المقصود انه لا يخضع للزمن.

من مآثر الامام علي بن أبي طالب في هذا الخصوص:

لابد لنا قبل الانتهاء من هذا البحث أن نتطرق الى بعض أقوال الإمام علي بن أبي طالب، المأثورة في هذا الصدد، والتي كانت ولا زالت الهاماً لامتناهياً للعلم في أبعد أفاقه وللفلسفة الالهية في اعلى مراحلها، فقال عن الله تعالى[23]: "فارق الأشياء لا على اختلاف الأماكن، وتمكن منها لا على الممازجة، وعَلِمها لا بأداة لا يكون الا بها، وليس بينه وبين معلومه علم غيره. ان قيل: كان، فعلى تأويل ازلية الوجود، وان قيل: لم يزل، فعلى تأويل نفي العدم".

وقال: "لا تصحبه الأوقات، ولا تردفه الأدوات، سبق الأوقات كونه، والعدم وجوده والابتداء أزله".

وقال: "لا يجري عليه السكون والحركة، وكيف يجري عليه ما هو اجراه، ويعود فيه ما هو أبداه، ويحدث فيه ما هو احدثه".

الى ان قال: "وان الله سبحانه وتعالى يعود بعد فناء الدنيا وحده، لا شيء معه، كما كان قبل ابتدائها، كذلك يكون بعد فنائها، بلا وقت، ولا مكان، ولا حين، ولا زمان، عدمت عند ذلك الآجال والأوقات، وزالت السنون والساعات، فلا شيء الا الواحد القهار، الذي اليه مرجع جميع الأمور".

---

[23] انظر نهج البلاغة

الفصل الرابع: العدل الالهي

٤-١ – الخير والشر

ان فكرة الخير والشر فكرة قديمة طالما تمسك بها الماديون والملحدون في معركتهم ضد معتقدات الكنيسة الاوربية التي لم تستطع أن تدافع عن نفسها ضد إتهاماتهم بسبب نظرتها الخاطئة لهذه القضية. ويتركز الحوار حول ماهية الخير والشر وهل انهما مفهومان مطلقان أم نسبيان. والملحدون الذين لا يؤمنون بوجود خالق للكون ينسبون الشر الى الخالق الذي تدعيه الكنيسة، بالقول أنه: اذا كان الشر موجوداً في المخلوقات، واذا كان الله قد خلق هذه المخلوقات، فمن أين أتاها الشر؟ لابد وانه من الله. وهذا ما عبر عنه (برتراند رسل) بالقول[24]: "أن الموجود الذي يمتلك القدرة المطلقة والذي خلق عالماً يحتوي على الشر ليس بسبب الخطايا فلابد أن يكون هو نفسه شريراً جزئياً".

ثم يستطرد (رسل) فيقول[25]: "قد يمكن فهم ان الشر الذي سببه الذنب على انه نتيجة لارادتنا الحرة، ولكن مشكلة وجود الشر في عالم ما قبل الانسان تبقى بدون فهم". وهذه اشارة واضحة على اعتبار الشر مطلقاً.

ورسل يعتقد ان فكرة الله فكرة اختلقها البشر، غير عابه بالسجل التاريخي للأنبياء وحججهم وتفانيهم في سبيل هذه الفكرة. وهو يعتبر هؤلاء الأنبياء وفكرة الله زائفة لمجرد انه قد تبين ان بعض معتقدات الكنيسة خاطئة، والتي يرددها (رسل) ويؤكد عليها في اكثر من مناسبة. وبطبيعة الحال فانه لم يرغب أن يعتبر سبب الخطأ هو تدخل الانسان في صياغة معتقدات الكنيسة، أولئك الرجال الذين لعبوا دوراً مهماً في قولَبَة الدين المسيحي على مر التاريخ كما يقول هو ذلك. ولعله كان مؤمناً بالمادية ولذا فإن غاية ما كان يبحث عنه هو ان يثبت ان الكنيسة على خطأ. وبعد البرهنة على ان المعتقدات الكنسية تتخللها التناقضات لم ينظر الى الأديان الاخرى.

وبعد أن توصل (رسل) الى استنتاجه للشر الذي رأيناه، يستمر،

---

[24] انظر المصدر ٣، ص ١٩٤

[25] انظر نفس المصدر، ص ١٩٤

ناسباً كل شيء الى اختلاق الانسان، بالقول[26]: "ولذا فطالما بقينا متجردين عن التحيز، فقد نكون مقتنعين بالقول ان كلا أفعال الخير والشر عبارة عن وهم .... فالخير والشر، وحتى الخير العلوي الذي يجده التصوف في كل مكان، هي انعكاسات لعواطفنا على الأشياء الأخرى، وليست جزءً من مواد الأشياء كما هي بنفسها. ولذا فانه عند التأمل المتجرد والمتحرر من كل الرواسب مع النفس، سوف لن يكون الحكم على الاشياء لا بالخير ولا بالشر".

أي أنه ليس هنالك خير بحد ذاته أو شر بحد ذاته، ولكنهما نسبيان. ولكن اذا كانت هذه هي الحالة فمن أين أتت أفكار الاستقامة والعدالة والجمال؟

أن ميل الانسان نحو الصواب والعدالة والجمال ميل فطري، وكذلك رفض الشر والقبح. فالاستقامة والعدالة والجمال تؤثر بصورة متشابهة على طيب راحتنا النفسية والفكرية، وكذلك فان الخطأ والشر والقبح تؤثر بصورة متشابهة ضد راحتنا النفسية والفكرية. ونحن لا نتكلم هنا عن ما هو الصحيح أو العادل أو الجميل ولا عن ما هو الخطأ أو القبيح، ولكننا نتكلم عن مفاهيم هذه الأفكار. ونحن نعتقد أن الجميع متفقون على وجود هذه المفاهيم. وقد نختلف عن الأشياء التي يمكن اعتبارها عادلة والأشياء التي نعتبرها غير عادلة ولكننا نتفق على وجود العدالة كمفهوم بحد ذاته.

وأهمية هذه المفاهيم بالنسبة لبحثنا يأتي من كون ارتباط الخير بالصدق والعدالة والجمال وارتباط الشر بالكذب والظلم والقبح. وما يدعيه (رسل) يوصله الى القول بأنه ليس بامكاننا، فيما لو حررنا أنفسنا من رواسب الماضي الفكرية، أن نعطي أي حكم من أي نوع لأننا سوف لن نعرف ماهية العدالة والظلم بسبب عدم وجودهما بحد ذاتهما على حد قوله. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو:

- اذا كانت هذه هي الحالة فعلاً فمن أين اكتسبنا قابلية التحكيم وكيف ظهرت هذه المفاهيم الى عالم الوجود؟
- فأما ان تكون هذه القابلية قد تطورت فينا من الداخل، وهذا معناه أنه يوجد صدق وكذب مما دعانا الى التمييز بينهما.
- أو أن القابلية قد منحت الينا من الخارج والتي تعني أن الله موجود.

[26] نفس المصدر السابق ص ٢٧

وفي كلا الحالتين فإن النتيجة هي ان كلا الخير والشر موجودان. وفي الواقع فان الاعراف لم تقم الا على أساس هذين المفهومين.

إذن، وخلافاً لاعتقاد (رسل)، فان الخير والشر موجودان، وما نحتاجه هو ازاحة الغبار الذي يشوه الافكار الصحيحة حولهما. وأصل هذا التشويش هو اما اعتبار كليهما مطلقين او كليهما نسبيين، والذي يؤدي الى التناقض الذي جعل (رسل) يرفضهما، وجعله يذهب بعيداً الى القول بأنه ليس هناك شيء نبيل وشيء فاسد، فهو يقول[27]: "أنه عند ادراك أن الشرور الأساسية سببها امبراطورية المادة العمياء، وأنها التأثير الكلي الضروري للقوى التي لا تملك الوعي والتي هي لهذا السبب ليست نبيلة وليست فاسدة فان مفهوم الظلم يصبح سخيفاً ... انه من الواضح ان بعض الأشياء حسنة وبعضها رديء ونحن لا نمتلك الواسطة التي تمكننا من معرفة فيما إذا كان الحسن هو السائد أو الرديء هو السائد".

وهذا الرأي مستمد من نظرته المادية إلى الوجود. والواقع ان الكون واسع جداً بالنسبة لنا، ونحن والحالة هذه لا يمكننا أن نعد الأشياء الحسنة والأشياء الرديئة لكي نعرف أيهما السائد، ولذا فإن (رسل) ينتهي إلى استنتاجه. ونحن هنا نتكلم عن مفاهيم الخير والشر وليس فيما إذا كانت الأشياء النبيلة سائدة أو الأشياء الفاسدة سائدة. وعلى كل حال نحن نعتقد أننا نستطيع إدراك أي من المفهومين يأتي أولاً، وأيهما مطلق، وعليه فإننا نستطيع أن ندرك أيهما السائد.

٤-٢ – الشر نسبي

دعنا أولاً أن نعرّف ما هو الشر. الشر هو أي شيء مناقض للخير. والخير يمكن تعريفه بأنه العدالة، وهي إعطاء كل ذي حق حقه سواءً كان خصلة أو صورة أو ملكية أو شيئ آخر، وسواءً كان لإنسان، أو لحيوان أو أي لمخلوق آخر، حياً أو ميتاً، حتى الأشياء الصغيرة والتي نعتبرها تافهة، أي إن العدالة هي اعطاء الشيء حقه. وخلافاً لاستنتاج (رسل) بأن الله شرير جزئياً (تعالى الله عن ذلك) فإننا نقول إذا كان الله خلق كل شيء فإنه ليس بحاجة لشيء لأنه موجود سواءً كان الخلق

27 انظر المصدر ٥ ـ ص ٦٨

موجوداً أم لا، ولذا فإن الله ليس بحاجة إلى الشر.

٤-٣ – الخير مطلق

ولإتمام الفائدة من هذا البحث سوف نتطرق إلى موضوع العدل الإلهي من ناحيتين فقط وهو ما يهمنا هنا، علما أن هناك نواحي أخرى بيّنها الفلاسفة الإسلاميون بالتفصيل (ولكننا لسنا هنا بصدد ذكرها).

الناحية الأولى هي انه إذا كان الشر هو سلب الحق من صاحبه، وإذا كان الله خلق كل شيء فهو المالك لكل شيء، لذا فان مفهوم الظلم بين الله وخلقه غير وارد لأنه إذا سلب الله المخلوقات أشياءها سيكون الله قد أخذ ما يملك وما يعود إليه وما هو حقه.

الثاني إن الظلم سيقع إذا لم تأخذ الأشياء من الوجود ما تستحق. والذي يحدث فقط إذا أوقف الله فيض الوجود بحيث أنه لا يصل الأشياء ما تستحق، والذي يجعلها ناقصة أو معدومة الوجود، والذي لا يتفق مع مطلقية الله تعالى. والأشياء تختلف من وجهة نظر اكتساب نوعية الوجود الذي تستحقه، ومن ناحية أن كل شيء يمتلك حقاً معيناً وقابلية معينة لاكتساب ما يستحقه من الوجود. ولما كان الله مطلق الوجود فإنه لا يوقف فيض الوجود إلى الأشياء. والأشياء لا تمتلك حقاً أكثر لاكتساب الوجود مما جُبِلت عليه بموجب خلقها، ولذا فإنها لا تمتلك حقاً تجاه الخالق أكثر مما تُعطى. ولما كان هو الخالق فإن الأشياء لا تمتلك حقاً تجاهه يجعل إعطاءها الحق وكأنه دَيْن على الخالق أو واجب عليه. وعدالة الله هي الوجود نفسه، والذي معناه إن هذه العدالة غير محرمة على المخلوقات. وتتجلى العدالة بالنسب الصحيحة للأشياء، وليس هناك فقدان للتجانس. وبرهان ذلك هو عدالة النظام الكوني وجماله.

من ذلك يتضح أن الخير مطلق وسائد.

٤-٤ – اصل الشر

وبعد هذه المقدمة عن الخير نستطيع الآن أن نستمر في حوارنا لمعرفة أصل الشر. وقبل أن ندخل في الموضوع سوف نحاول أن نقربه من الذهن أكثر، وسوف نأخذ بنظر الاعتبار ما يطلق عليه شر القدرة،

وهو أكثر أنواع الشر الذي يشار إليه عند الكلام عن الشر. وهو شر الإنسان نحو أخيه الإنسـان.

فإذا اشتريت سكيناً من حداد وطعنت بها شخصاً فقتلته، أين الشر في ذلك؟ هل هو في الحداد؟ أم في السكين؟ أم فيك؟

طبعاً انه ليس في الحداد لأن الحداد ليس مسؤولاً عن الجريمة بسبب صنعه للسكين التي صنعها لكي يستفيد منها الناس في عمليات التقطيع لما فيه الخير لسعادتهم وتسهيل أعمالهم (على فرض ذلك). والشر ليس في السكين التي لا يمكن رمي اللوم عليها حيث انها ليست واعية ولا تمتلك من زمام أمرها شيئاً. لذا فإن الشر فيك أنت المسؤول عن الجريمة لأنك تمتلك الإرادة وأسأت استخدام السكين، والشر أساسه إساءة استخدام الإرادة التي يمتلكها الإنسان، وإساءة استخدام الامتيازات والقابليات والخصائص الأخرى التي منحها الخالق له.

ومَثَلُ السكين هنا كَمَثَل هذه القابليات عند الانسان، ومَثَل الحداد كَمَثَل الخالق، تعالى الله عن تمثيله بالأشياء.

- فلا الخالق مسؤول عن الشر.
- ولا القابليات التي يعطيها الله للإنسان مسؤولة عن الشر،
- ولكن الإنسان هو المسؤول عن الشر بسبب استعماله للقابليات التي منحها الله له في غير مواضعها.

ولا يمكننا أن ننسب الشر الموجود في الإنسان إلى الله (كما يدعي رسل) لأن الشر يكمن في محاولة الإنسان الحصول على ما ليس من حقه باستخدام الوسائل المتوفرة لديه في غير ما يجب وغير ما هو مرسوم لها أن تستخدم من أجله.

ويتضح من ذلك أنه إذا كان الإنسان سبب الشر فإن الشر نسبي وليس مطلقاً وهذا بدوره يجعله غير موجود في الخالق، لأن ما يوجد في الخالق يجب أن يكون مطلقاً. إن الله خلق الوسائل والقابليات في الإنسان من أجل أن يستعملها الإنسان لسعادته ومن أجل الخير، والإنسان هو الذي يسيء استعمال هذه الامتيازات من أجل غاياته الأنانية خلافاً للغاية التي مُنِحَ من أجلها هذه الامتيازات.

إن الحب الذي تمتلكه المرأة تجاه طفلها هو شعور ضروري أودعه الله فيها لكي يدفعها إلى المحافظة على الطفل ورعايته من أجل إنشاء

الأسـر المترابطة والمجتمعات البشرية الصالحة. فإذا مات الطفل وكان ذلك مؤلماً للأم فإن ذلك لا يعني أن الله أودع الحب في المرأة تجاه طفلها لإنزال الألم بها عند موته والذي قد يعتبر شراً، لكن ألمها نتيجة عرضية لابد منها، فهي ان لم تشعر بذلك الشعور القوي نحو الطفل فإنها سوف لن تتمكن من تحمل أعباء رعايته والمحافظة عليه، بل ربما تقتله في كثير من الأحيان لكي تريح نفسها من تربيته المتعبة فالحب هذا خير أودعه الله في المرأة، وليس شراً بالرغم مما يمكن أن ينتج عنه من ألم في حالة موت الطفل. وقد اقتضت عدالة الله تعالى ان يتلاشى هذا الألم بعد فترة زمنية معينة، وسيثيبها الله على صبرها وآلامِها.

وإذا كان الخير هو السائد، وإن الله أعطى كل شيء حقه، وبذلك فقد ملأ الوجود خيراً، فإنه يمكن القول (كما بين ذلك الفلاسفة الإسلاميون): إن الشر عموماً هو فقدان الخير.

أي انه إذا كان الخير هو ما منحه الله للأشيـاء فإن انعدام وجود الخير يمكن النظر إليه على أنه الشر لأن الشر هو نقيض الخير. وعلى سبيل المثال فإن الطرش هو ليس سوى فقدان القابلية على السمع وهو ليس شيئاً بحد ذاته ولكنه فقدان لشيء. والظلم هو فقدان الرحمة في قلب الظالم. والجهل فقدان المعرفة التي هي كمال، وعندما لا يمتلك الإنسان المعرفة فهو لا يمتلك صفة أو خاصية تسمى (فقدان المعرفة) التي لا يملكها العالم، فالعالم كان جاهلاً قبل أن يتعلم وهو لا يفقد شيئاً عند اكتساب العلم وإنما يكتسب شيئاً. ولو كان الجهل شيئاً بحد ذاته لكان التعلم مصحوباً بفقدان شيء ما. ومن الأمثلة الأخرى الفقر الذي هو عدم امتلاك الثروة والموت الذي هو فقدان الحياة وليس اكتساب شيء آخر. ويتبع ذلك أن الأشياء التي تسبب فقدان شيء ما، مثل الهزات الأرضية والبراكين والحيوانات الوحشية وغيرها تسمى شراً، ولو لم تسبب فقدان شيء ما كالحياة لما اعتبرت شراً. فالأشجار لا تعتبر شراً، والجبال لا تعتبر شراً، وهذا النوع من الشر هو الشر النسبي .

وبالنسبة لهذا الشر فإن (رسل) يقول[28]: "إنني لا اعتقد أن الدكتور بارنز سيقبل الحل الذي يقدمه وليم جيلسبي أن أجسام الوحوش الضارية كانت مسكونة من قبل الأشرار الذين سبقت خطيئاتهم الأولى خلق الوحوش، ومع ذلك فإنه من الصعب رؤية إمكانية اقتراح أي جواب آخر منطقي ومقبول".

[28] أنظر المصدر ٣ ص ١٩٤

وتعليقنا على هذا الرأي يتضح مما أسلفنا من القول بأن الحيوانات الضارية ليست شراً بحد ذاتها. فالكائنات الحية لابد وأن يعيش بعضها على بعض على شكل دورة كاملة، وبذلك فإن الحيوانات تمثل شراً نسبياً لنا. ومن خلال هذه النظرة فان الخروف شر بالنسبة للأدغال.

إن سبب شر الخصائص، مثل الجهل، وضعف الإرادة، يمكن تقفي أثره إلى الإنسان في النهاية، وهو ليس خاصية ذاتية في المخلوق بسبب الخالق. وحتى العيوب التي يمتلكها بعض الناس بالولادة فإن سببها الإنسان. مثلاً أن تكون نسب المواد الغذائية التي تأكلها الأم ليست صحيحة، أو بسبب شرب الكحول أو التدخين أو المخدرات، أو استعمال بعض الأدوية في فترة الحمل أو العيش تحت ظروف صحية رديئة تؤثر على نفسية الأم، كالظروف العائلية الكئيبة أو العلاقات العائلية الفاسدة أو المقلقة، أو ظلم الإنسان لأخيه الإنسان.

٤-٥ – خلط وتشويش لعقول الناس

وبعد هذا السرد نود أن نناقش الرأي التالي (لرسل) الذي يقول[29]: "من المألوف أن السعادة لا يتم إحرازها كما يجب من قبل الذين يبحثون عنها بصورة مباشرة، ويبدو أن نفس الشيء صحيح بالنسبة للخير. واعتقد، على أي حال، أن أولئك الذين ينسون الخير والشر ويبحثون عن معرفة الأشياء هم أكثر احتمالاً لإحراز الخير من أولئك الذين يرون العالم من خلال الوسط المشوه لرغباتهم الذاتية".

يبدو ان (رسل) هنا يصطنع تشويشاً ويثير غباراً كثيفاً حول الموضوع بواسطة ربط مواضيع ليس لبعضها علاقة ببعض، ثم يستعمل مفهوماً لا يختلف عليه أحد لكي يبرز في النهاية بنتيجة كان قد صمم عليها سلفاً. فالمواضيع التي لا علاقة لبعضها ببعض هي أولئك الذين يبحثون عن السعادة وأولئك الذين يبحثون عن الخير. وأنه لمن الواضح أن الذين يبحثون عن السعادة ليسوا سعداء وإلا لما بحثوا عنها، ولكن عندما يقول (رسل) أن نفس الشيء صحيح بالنسبة للخير فهل أنه يقصد أن أولئك الذين يبحثون عن الخير هم أشرار وإلا لما بحثوا عن الخير؟ فإذا كان هذا هو ما يرمي إليه، فهل أن ذلك يعني أن الناس التقاة الذين يدعون إلى الخير هم أشرار؟ في هذه الحالة، وبرسم التشابه مع السعادة

[29] نفس المصدر السابق – ص٢٩

بنفس الأسلوب الذي استعمله (رسل):

- فهل يعني ان الناس الأشرار هم الأفضل قدرة على امتلاك الخير وإحرازه مثلما أن أولئك الذين لا يبحثون عن السعادة هم سعداء؟
- وهل يعني أن الناس الذين يبحثون عن الخير يفعلون ذلك لأنهم لا يمتلكون الخير، أي انهم أشرار؟ الا يناقض ذلك تعريف مفهوم الشر نفسه حيث أن الشر لا يعرف الخير؟
- وهل أن الناس الذين يبحثون عن الخير يفعلون ذلك من أجل أنفسهم فقط ولأجل رغباتهم الشخصيـة؟
- وماذا عن المصلحين والأنبياء الذين تحملوا المعاناة والآلام لأنهم كانوا يبحثون عن الخير للبشرية؟

و (رسل) بعد ذلك يخلط بين شيئين لكي يصل إلى مقصده. وهذان الشيئان يتمثلان بأولئك الذين يبحثون عن الحقيقة، ولا شيء سوى الحقيقة، وهو شيء نبيل. وأولئك الذين يمتلكون الرغبات الشخصية التي تشوه الطريق نحو الخير، وهو شيء قبيح طبعاً.

وأنه لواضح أن طريق الخير بالنسبة لإنسان يتمسك بمعتقدات خاطئة أو رغبات ذاتية يكون مشوهاً. ولكن هذا الطريق بالنسبة لإنسان يتمسك بمعتقدات صحيحة ويمتلك رؤيا واضحة لا يكون مشوهاً حتى ولو لم ينس الخير والشر. وعلى كل حال: ما هي الحقيقة وكيف نصل إليها بدون معرفة الخير والشر والفرق بينهما؟ وكيف نستطيـع أن نميز بين الخير والشر عندما نصل إليهما إذا كنا غافلين عنهما أو نسيناهما كما يقول (رسل)؟

و (رسل) يتوسع في هذا الموضوع بالقول[30]: "يبدو لي أن الناس الذين تمسكوا به "أي الخير" كانوا هم الأشرار في معظم الأحيان. وأنك لتجد الحقيقة الملفتة للنظر أنه كلما كان الدين أكثر قوة في أي فترة زمنية كلما كـان الاعتقاد المتغطرس أكثر عمقاً وكانت القساوة أعظم وكانت الحالة أكثر سوءً. وفيما يسمى عصور الإيمان، عندما كان الرجال يؤمنون حقاً بالدين المسيحي بكل كماله، كان هناك الظلم والتعذيب، وكان هناك الملايين من النساء المسكينات اللاتي أُحْرِقْن باعتبارهن ساحرات، وكان هناك كل أنواع القساوة والوحشية التي مورست على كل أنواع

30 انظر المصدر ٣ – ص٢٤

الناس باسم الدين.

وإذا بحثت في العالم فإنك ستجد أن كل تقدم صغير في الأحاسيس الإنسانية وكل تحسن في قانون الجريمة، وكل خطوة نحو إزالة الحروب، وكل خطوة نحو التعامل الأفضل مع الأجناس الملونة، وكل تخفيف للعبودية، وكل تقدم أخلاقي حدث في العالم، قد عارضته الكنيسة العالمية المنظمة بصورة ثابتة. وأنا أقول وبكل تعمد أن الدين المسيحي، كما هو منظم بكنائسه، كان ولا زال العدو الرئيسي لتقدم الأخلاق في العالم".

وهذه الملاحظات ولا شك، لها ما يبررها، ولكن (رسل) يبادل بين الدين والمسيحية. والمسيحية أحد الأديان ولكن ليس كل الأديان مسيحية الأصل او التفرع. ولذا يجب أن يكون واضحاً للقارئ أن (رسل) يتكلم عن المسيحية فقط، ولا يجب أن توسع آراؤه لتشمل الأديان الأخرى التي لم ترتكب شناعات الكنيسة أو ممارساتها اللانسانية في أوروبا. ولو كان النبي عيسى (ع) حياً لما قبل أن ترتكب تلك الجرائم باسمه، أو بغير إسمه. وبدلاً من ذلك كان سيأمر بمعاقبة مقترفيها. فليس الله تعالى ولا عيسى، ولا أي إنسان يمتلك ذرة من الرحمة في قلبه يقبل بحرق النساء أمام الناس بدعوى السحر والشعوذة. وحتى أولئك اللاتي يستحقن الموت بسبب جرائم يقترفنها فانه بالامكان سلب حياتهن بطرق أقل بشاعة وإهانة من الحرق في الأماكن العامة، والتي تخلق أجيالاً جديدة متوحشة بدلاً من المجتمع الذي يسوده الحب والأمن الذي أراده الله وعيسى (وهم الذين يدعون اتباع المسيح الذي يقول، كما يدعون، انه كان يدعو الى الحب والسلام، وهو القائل: اذا ضربك احد على خدك الايسر فادر له الخد الأيمن، فاين هم من هذا الادعاء الكاذب) . والواقع ان الناس الاشرار دائماً استعملوا الدين للوصول الى غايات سياسية شريرة (باسم الدين) والدين من ذلك براء، وقد يكون رسل متعمداً عندما لايذكر ذلك، وهو الفيلسوف الملحد.

وعلى كل حال فأن وصف أولئك الذين يبحثون عن الحقيقة بأنهم أولئك الذين يجب ان ينسوا الخير والشر، وأولئك الذين لا يفعلون ذلك بأنهم يمتلك رغبات مشوشة ليس صحيحاً على الاطلاق. بل على العكس، إن الذين كانوا يدعون الى الخير كانوا يطلبون من الناس أن يتعرفوا على الحق ويتبعوه، وعلى الباطل فيجتنبوه. وكانوا يتمسكون بمعتقداتهم ولم ينسوا الخير والشر، وهذه المعتقدات لم تكن رغبات رخيصة. ومن هؤلاء

الناس نحن تمكنا من معرفة الأخلاق الحميدة التي نعرفها اليوم (أو ما بقي منها) والتي جاءتنا خلال الأجيال. وأن الربط بين الناس الذين يبحثون عن السعادة وأولئك الذين يبحثون عن الخير محاولة خبيثة، وكذلك فأن الالماع بأن أولئك الذين يتمسكون بمفهومي الخير والشر يمتلكون رغبات مشوهة وأنهم لا يبحثون عن الحقيقة، محاولة خبيثة هي الأخرى.

٤-٦ – هل أن الله على كل شيء قدير؟

يجادل بعض الماديين والملحدين حول معنى قدرة الله تعالى، فيقولون:

- اذا كان الله على كل شيء قدير فهل يستطيع أن يتخلى عن خلقه؟
- أي هل أنه يستطيع أن يفصل خلقه عنه بحيث أنه لا يمكن ارجاع سلطانه على الخلق؟

وفي ذلك احتمالان:

- الأول، اذا كان الله لا يستطيع أن يفصل خلقه عنه فانه ليس على كل شيء قدير.
- والثاني، اذا كان الله يستطيع ان يفصل خلقه عنه بحيث لا يمكن ارجاع سلطانه عليه فيصبح ليس عل كل شيء قدير.
- إذن في كلتا الحالتين إن الله ليس قادراً على كل شيء وبذلك فانه ليس إلهاً.

ولحل هذا التناقض نود أن نذكر بأن هذه الحجة تشابه في طبيعتها تلك الأسئلة غير المنطقية التي واجهناها سابقاً. وتكمن أسباب التشويش حول هذه القضايا في عدم ادراك المعنى الحقيقي لتعريف الله وصفاته. ويتضح ان فكرة الله يساء فهمها الصحيح حتى من قبل أولئك الذين يحملون فكرة الايمان بها.

فالكل يتصور ان الله شيء واحد ولكن باتجاه واحد من التفكير فقط. ولذا فان الحوار في اتجاه مختلف يصل الى التناقض لا محال.

ان الله واحد من ناحية نوع الوجود، وهذا معناه أن طابع وجوده فريد النوع. وكما رأينا سابقاً فان وجود الله لا يحتاج الى الزمان أو المكان، ولا يخضع لهما. ولذا فانه من غير الممكن ادراك ماهية وجوده (لأن ادراكاتنا محدودة بالزمان والمكان ولا يمكنها ان تتصور شيئاً خارجهما) والشيء الوحيد الذي يمكن قوله هو ان الله فريد في ماهيته. فالمقصود بوحدانية الله اذن هو فردانية النوعية، ولا يمكننا أن نقول أكثر من ذلك.

والله يمتلك صفات عديدة، قال تعالى[31] "ولله الأسماء الحسنى"، سورة الأعراف، آية ١٨٠. وهذه الصفات لا تكوّنه، أي أنه لا يتألف منها، ولكنها تنبع منه وتشع منه ومن عطائه بكميات لا محدودة ولا متناهية، وتأثيرات هذه الصفات لا يمكن فصلها عنه.

فالله عادل ورحيم وجميل وجبار ومقتدر وعالم الخ، وكل هذه الصفات مطلقة ومجتمعة بنفس الوحدة الواحدة التي هي واحد نوعاً (وليس عدداً فالأعداد ليس لها معنى هناك). وهذه الصفات لا يمكن فصل بعضها عن بعض، أي انه لا يمكن النظر الى الله على أنه مقتدر مثلاً وننسى الصفات الأخرى، أو عادل وننسى الصفات الأخرى، بل يجب أن نعي ان جميع هذه الصفات مجتمعة بالله بنفس الوقت، وهي عطاءاته التي لا تنضب لانها مطلقة، والمطلق لا ينقص لانه اذا نقص فهو ليس مطلقاً. وتشع عطاءاته منه كما يشع الضوء من الشمس، ولكن ليس على سبيل تشبيه المكان بل من ناحية الوجود كوجود، فالزمان والمكان هما تصوراتنا عن الوجود ونظرة الله الى الوجود قد تكون مختلفة عن نظرتنا. والله يستطيع أن يتصور الوجود كما نتصوره نحن أيضاً بطبيعة الحال لانه هو الذي خلقه وصوره وخلقنا وصورنا.

والسؤال القائل هل أن الله يستطيع أن يفصل خلقه عنه يتضمن انفصالاً من ناحية المكان، والذي لا يمكن قبوله لان الله غير خاضع للمكان، أو انفصالاً من ناحية الوجود والذي لا يمكن قبوله أيضاً لأن هذا بدوره يتضمن الحاجة الى وجود واسطة تربط الله بالخلق، أي أن الله بحاجة الى شيء يربطه بالخلق وهو مستحيل لأنه ينافي مطلقية الله. كما أنه يتضمن وجود انفصال فراغي بين الله وخلقه وهو مرفوض أيضاً كما تقدم.

يتضح من ذلك أن السؤال يتضمن افتراضات ومفاهيم غير مقبولة منطقياً، وغير مقبولة بموجب تعريف الله، بالرغم من عدم وعي الملحدين

[31] سورة الاعراف، الآية 180

لهذه الافتراضات الضمنية في أسئلتهم.

إن الخلق يكتسب وجوده من الخالق بطريقة تشبه حصول الضوء على وجوده من الكهرباء، فاذا قطع التيار يختفي الضوء وينعدم. وكذلك اذا انفصل الخلق عن الله بأي مفهوم كان فان الخلق يتوقف عن الوجود ويختفي. من هنا فأن السؤال الذي نحن بصدده مرفوض ولا يمثل سوى جملة لغوية لا تحمل أي معنى منطقي من وجهة نظر الواقع، ومنه نستنتج أنه لا يوجد أي تناقض، والتناقض الذي رأيناه سابقاً وهمي ولا وجود له.

وكذلك فأن السؤال السابق يتناقض مع تعريف الله وصفاته التي ذكرناها. فهو يأخذ صفة واحدة ويتناسى الصفات الأخرى وعليه فإن هذا ليس الله الخالق لكل شيء لأن الخالق كامل من كل الوجوه وفي جميع الاتجاهات بنفس الوقت كوحدة واحدة، ويجب النظر إليه هكذا. وبطبيعة الحال، إذا أخذنا بعض صفات الله بنظر الاعتبار ونسينا الصفات الأخرى نصل إلى التناقض، وذلك لأنه في هذه الحالة فإن كلامنا سيخص شيئاً آخر غير الله. أما إذا أخذنا جميع صفات الله بنظر الاعتبار في نفس الوقت فسوف لن يكون هناك تناقض. أن جميع الذين يتطرقون إلى الله وصفاته ويصلون إلى التناقض هم في الواقع يرتكبون هذا الخطأ، وهو أخذ بعض الصفات ونسيان الصفات الأخرى، وبذلك فإنهم في الواقع يتكلمون عن جزء لا عن الكل، ولما كان الله لا يمكن تجزأته بأي اسلوب أو مفهوم كان، فإن الكلام عن الجزء ليس كلاماً عن الله. وبذلك فإن هؤلاء الفلاسفة، خاصة الأوربيون امثال برتراند رسل، هم في الواقع يتكلمون عن شيء غير الله (لأنهم يتكلمون عن الجزء) ويعتبرونه الله متصورين أنهم على صواب.

وعلى سبيل المجادلة، دعنا نفترض أن الله يفصل خلقه عنه. ماذا سيحدث؟

هناك شيء واحد نستطيع أن نقوله بكل تأكيد، بسبب ملاحظاتنا عن الإنسان وتاريخ الإنسانية، ذلك إن الظلم سيجد طريقه إلى المجتمع الإنساني، وبأقل تقدير سيسود في إحدى زوايا الخلق، خاصة الإنسان. والظلم هو عكس العدالة. ولذا فإن الحالة ستعني أن الله سمح للظلم أن يحدث بطريقة مطلقة لأنه سوف لن يكون ما يعيقه إذا فصل الله الخلق عنه. وهذا يعني أن الله يقبل بالظلم وهو منافي لصفة العدالة المطلقة له. وبطبيعة الحال فإن ذلك غير ممكن لأنه سيعني أنه بالرغم من أن الله هو

العدل المطلق فإنه يقبل الظلم، وهو تناقض مرفوض ففصل الله للخلق عنه معناه وقوع المستحيل وهو مستحيل.

ويتضح أن المقصود (بأن الله على كل شيء قدير) ليس مفهوماً بصورة صحيحة. فانعدام القدرة هو نتيجة لتصوراتنا نحن البشر لأن الله في وجوده لا يحتاج أن يفعل شيئاً لأنه ليس بحاجة إلى أي شيء. والحاجة هي تصورنا نحن عن الأشياء. لذا فإن انعدام القدرة لا يوجد بالنسبة لله لأنه ليس هناك انعدام في وجوده، فانعدام وجود أي شيء يناقض وجود الله المطلق وهو مستحيل. وانعدام قدرة الله تجاه أي شيء يناقض قدرته المطلقة وهو مرفوض.

والتعبير عن اللاقدرة أو العجز هو تصورنا الذي لا يمكن تطبيقه على الله. فالمطلقية معناها القدرة فقط، واللاقدرة لا توجد. وبذلك فإن افتراض عدم قدرته على الأشياء التي لا يفعلها معناه افتراض وجود التناقض، وهو مرفوض. ذلك لأنه إذا كانت القدرة المطلقة موجودة فإن انعدام القدرة يشكل تناقضاً وهو مستحيل.

إن سوء الفهم لهذه المفاهيم، وعدم المقدرة على أخذ مفهوم الله بنظر الاعتبار بفكر واضح قاد القديس (أكويناس) Aquinas إلى القول أن الله (لا يستطيع) أن يشأ الأشياء المستحيلة التي تمتلك الاستحالة في ذاتها، بدلاً من القول أنه لا يفعلها لأن ذلك ليس ما كان قد قرره هو. فاستحالة الأشياء في ذاتها ليست خارجة عن إرادة الله وإنما هو الذي خلقها مستحيلة بهذا الشكل وإن شاء بدلها. إن مفهوم الاستحالة ومفهوم التناقض وغيرهما عبارة عن مفاهيم خلقها الله تعالى لأنه خلق كل شيء. والأشياء التي تمتلك مفهوم الاستحالة كجزء من كينونتها التي خلقها الله عليها تصبح مستحيلة. وكذلك الحال مع الأشياء المتناقضة. وأنه لواضح أن هذه المفاهيم كانت قد وضعت في هذه الأشياء من قبل الله تعالى، ولم تأت من نفسها، والقول أنها أتت من ذاتها معناه أنها خارجة عن قدرة الله وإن الله لا يقدر عليها. والقول بذلك معناه إن هناك بعض الأشياء مطلقة (لأنها خارجة عن إرادة الله)، والذي معناه وجود المطلق خارج الله وهو مستحيل حيث أن المطلقية يجب أن تتضمن كل شيء وليس هناك شيء خارجها. كذلك إذا كانت المفاهيم ذاتية في أصلها، كما يتضمن قول أكويناس، فكيف دخلت إلى الأشياء التي هي من خلق الله (والتي يُفْهَم منها أنها خُلِقيت من قبل الله كلياً)؟

وفي خضم سوء الفهم لهذه المفاهيم يأتي القديس (أكويناس) ليطرح

فكرته تلك عن الله، والتي دعت (برتراند رسل) إلى القول[32]: "أنه على سبيل المثال أن الله لا يستطيع أن يجعل تناقضاً ما صحيحاً. ان مثال القديس بأن هناك شيئاً ما خارج القدرة الإلهية ليس مثالاً سعيداً جداً، فهو يقول إن الله لا يستطيع أن يجعل إنساناً ما جحشاً".

إن التشويش وعدم وضوح رؤيا المحيطين بهذه الفكرة سببهما النظرة غير الواضحة لصفات الله تعالى. فالتناقض لا يوجد في ذات الله (لأن التناقض جزء مما خلق). والكلام في هذه المفاهيم هو من نوع افتراض بعض الافتراضات في عالمنا ثم نسبتها إلى الله، وهو بطبيعة الحال حجة غير واردة. ولكي يكون الحوار مجدياً فإنه تجب البرهنة على أن هذه المفاهيم توجد في ذات الله قبل الكلام عنها.

٤-٧ – هل لله علة؟

وهناك موضوع آخر مشابه لما مر علينا من ناحية سوء الفهم، وهو إخضاع الله إلى علة سببت وجوده. و (رسل) يقول إذا كان كل شيء يحتاج إلى علة فإن الله يحتاج إلى علة. والصحيح هو أن نقول أن كل شيء في عالمنا، أي كل شيء مخلوق، يحتاج إلى علة، لأن العلة هي إحدى قوانين كوننا الذي خلقه الله، وطبعاً فإنه لا ينطبق على الله، لأنه وكما قلنا، لا يخضع لما خلق. فالله خلق الأشياء وربطها بقوانين وجعل بعضها علة لبعض، وهو علة الكون لأنه موجده. ولما كنا نجهل ماهية وجود الله فإنه من غير الممكن، ولا المعقول، أن نتكلم عن علته لأن وجوده لا يحتاج إلى علة. كذلك فإن قانون العلية يحكم الأشياء الناقصة التي بحاجة إلى شيء آخر لكي توجد، والكامل بالتعريف لا يحتاج إلى شيء آخر، فهو لا يحتاج إلى علة.

إن أخطر تشويش للأفكار هو تطبيق القوانين التي خلقها الله على الله. وهذا بطبيعة الحال، وكما قلنا، مرفوض لأنه كيف يمكن أن يخضع لما خلق؟ وهو معنى قول الحكيم[33]: " لا يجري عليه السكون ولا الحركة، وكيف يجري عليه ما هو أجراه، ويعود فيه ما هو أبداه، ويحدث فيه ما هو أحدثه".

وصعوبة إدراك هذه الحقيقة قادت (برتراند رسل) أن يجادل بواسطة

---

32 المصدر ٥ – ص ٤٤٩

33 علي بن أبي طالب – نهج البلاغة

تطبيق القوانين التي خلقها الله على الله فانتهى إلى القول بأن الله وسيط وان إدخاله في النقاش غير ضروري، على حد تعبيره. وعلى سبيل المثال، فإنه يقول[34]: "إذا كان هناك سبب للقوانين التي وضعها الله، فإنه نفسه خاضع للقوانين".

وهذا يمثل قصوراً شديداً في الرؤيا لأن القانون ضروري بالنسبة للناقص (وهو المخلوقات) وليس لمن كماله مطلق. فإذا كان الله بحاجة إلى القانون فهو ليس كاملاً لأنه سيكون بحاجة لشيء خارج عنه لتنظيمه. ولكن إذا كان الله كاملاً، وهو كذلك بموجب التعريف، فإنه ليس بحاجة للقانون أو لأي شيء آخر. ونحن نرى أن ما يجهله الناس هو معنى الكمال والاطلاق وماذا يتضمنان. والمخلوقات بحاجة إلى هداية، وإذن هي بحاجة إلى القانون. أما المطلق فإنه يعرف الأشياء بدون الحاجة إلى ما يسيّره. كذلك اذا احتاج الله الى القانون فان ذلك يجعل القانون هو الحاكم وعندئذٍ نسأل من اوجد القانون وتصبح حلقة مفرغة لا نهاية لها، وهو مرفوض.

٤-٨ – لماذا خلق الله الخلق؟

الحديث الذي سردناه يضعنا أمام السؤال الذي يطرحه كثير من الناس ولا يجدون عليه جواباً. وهو: لماذا خلق الله الخلق؟

وهناك من يقول أن المسألة ليست في متسعنا، وليست عندنا القابلية لمعرفة الأسباب لأنها تقع ما وراء إدراكاتنا، وهذا صحيح بطبيعة الحال. إلا أن القول أن هناك أسباباً للخلق معناه إخضاع الله لهذه الأسباب وهو مرفوض لأن الله لا يخضع للأسباب ولا يخضع لشيء.

ومنهم من يقول أن الله خلقنا لكي نعبده، كما يصرح هو بذلك في الآية الكريمة: " وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ"، سورة الذاريات، الآية ٥٦.

وهذه الآية تتكلم عن الأنس والجن فقط وليس عن مجمل الخلق (وسوف نناقش مسألة العبودية في الفصل التاسع). وهناك من يقول أن الله خلق الخلق ليبرهن على وجوده ويظهر وجوده. وهذا معناه أنه بحاجة لإظهار وجوده، وهو ينافي غنى الله عن الخلق، لأن حاجة الله لإظهار وجوده معناها رغبة أو ضرورة، وهذا نقص، والله تعالى ليس مضطراً

[34] أنظر المصدر ٣، ص ١٧

لشيء، وليس ناقصاً.

ولكن إذا كان الله ليس بحاجة لخلق الأشياء فلماذا خلقها؟

والجواب على هذا السؤال لا يمكن إعطاؤه إلا من قبل الخالق نفسه. وهو لم يعطنا الجواب الواضح، فهو القائل، عزّ من قال: " وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ "، سورة البقرة، الآية ٣٠.

ولكن ذلك لا يمنعنا من محاولة البحث حول الموضوع بشرط عدم الوقوع في تناقض مع صفات الله التي سردناها، وعدم إخضاع الله لشيء، كالقانون أو السببية مثلاً.

ونحن نعتقد أنه إذا كان الله مطلقاً من كل الوجوه، وهو كذلك طبعاً، فإن الخلق ليس إلا نتيجة من نتائج هذه المطلقية، ويتبع ذلك احتمال وجود عددٍ لا متناهٍ من أنواع ومستويات الوجود، وعالمنا ليس إلا واحداً من هذه الوجودات. وكل هذه الوجودات مجتمعة تمثل جزءً من المطلقية التي تغمر كل شيء وتحتضن كل شيء. وبالمقارنة مع الوجود المطلق فإن العالم الذي ندركه تافه بتفاهة الذرة عند مقارنتها مع الوجود. وهذا هو أحد الأسباب التي تدعونا إلى القول أننا تافهون بالنسبة لله. وإذا كان كوننا ليس سوى أحد الوجودات فإنه من غير الممكن أن يكون مطلقاً، أو أن يكون هو الوجود بأكمله.

وبالإمكان تصور أن الوجود ينبع من رحمة الله وعدالته، ومن الله كما هو. فإن عدم خلق الخلق مع القدرة على ذلك معناه أن الله رحيم وعادل ولكنه يحجب هذه الرحمة وهذا العدل من أن ينالهما من يستطيع من الكائنات التي يمكن أن يخلقها الله. كذلك انها ستعني ان الله ليس مطلقا لانها تعني انه لايملك الارادة المطلقة، فالارادة المطلقة تكون نتيجتها الخلق. وهذا يناقض مطلقية الله. فالرحمة والارادة المطلقتان لابد وأن تغمرا أقصى ما يمكن وهو الوجود المطلق. والله مريد بصورة مطلقة ولذا فانه يريد، وجزء من ذلك فانه يريد ان يخلق الخلق.

وكذلك الحال مع عدل الله. فالله يخلق الأشياء رحمة بها. وإذا كانت الأشياء بإمكانها أن توجد نتيجة لقدرة الله المطلقة، وهي كذلك ليس بسبب الأشياء ولكن بسبب مطلقية هذه القدرة، فان عدله المطلق لا يمنعها من

أن تخلق. بل على العكس من ذلك فإن هذا العدل يعبّد الطريق أمام الخلق لكي يُخلق لأنه (أي العدل) مطلق. لذا فليس هناك ضرورة أو احتياج أو سبب لخلق الخلق كما يجادل البعض، وليس سبباً يؤثر على الله. والأشياء تنبع من عطائه، وكل شيء بحاجة إليه ولكنه ليس بحاجة إليها. وهذه الحاجة هي ما نطلق عليه العبودية.

فبالنسبة إلى الله تعالى إذن ليست هناك حاجة ولا ضرورة ولا إرادة أو رغبة في إظهار نفسه. والخلق ينبع من مطلقيته لأن المطلق يحوي كل الأشياء، والخلق جزء من هذه الأشياء. قال تعالى: " وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (38) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ"، سورة الدخان، الآيات ٣٨، ٣٩.

وقد خلق الله كل شيء، فقد خلق الحيوانات والاشجار والاسماك والحشرات. وليس هناك ما يشير الى ان الله خلق هذه الأشياء فقط. فقد خلق الاجرام السماوية والمجرات والذرات والجزيئات الخ. وخلق الملائكة الذين لا يعصون الله ما امرهم وليس لديهم إرادة العصيان. كذلك خلق الله الجن الذين يملكون إرادة كالانسان، ولكنه يعيش في بعد آخر يختلف عن البعد الذي يعيش فيه الانسان.

وقد اعطي الانسان الإرادة لكي يستخدمها، ولا معنى لها بعكس ذلك. ويمتلك الانسان عقلاً يميز بين الصحيح والخطأ. فنحن نتبع القوانين والقواعد الاجتماعية في العمل وفي علاقاتنا مع الاخرين الخ.

ان الملحدين لايفهمون ذلك وهو قصور مرده اليهم وليس الى الله، تعالى عما يشركون.

٤-٩ – سوء فهم لحكمة الخالق

والآن نستطيع ان نرجع الى الأسئلة التالية:

- اذا كان الله كله خيراً فلماذا يوجد الشر؟
- اذا كان الله لا يستطيع منع الشر، فانه لا يمتلك القوة المطلقة.
- اذا كان الله لا يرغب في منع الشر، فانه ليس خير مطلق.
- اذا كانت إرادة الله هي منع الشر، واذا كان قادراً على ذلك، فلماذا يوجد الشر؟
- واذا كان الله لا يعرف ان الشر سيحدث، فانه لا يعلم كل شيء.

- واذا كان الله يعلم ان الشر سينتشر، فلماذا سمح له ولم يمنعه؟
- وهناك جدال مشهور آخر ايضاً:
  - لما كان الله خلق كل شيء،
  - ولما كان الشر موجوداً،
  - اذن هو الذي خلق الشر،
  - ولما كان الله هو المطلق فان الله هو الشر المطلق.

ان الله يستطيع منع الشر، ولكنه يريدنا ان نقوم به نحن انفسنا. ففي المدرسة يريد الأستاذ للطلبة ان يتعلموا وينجحوا في الامتحان. والذين لا يجتهدون للامتحان يفشلون. فالطلاب الذين لايجهدون انفسهم للامتحان يحصلون على العقاب وهو الفشل. وكذلك فان فشلهم (أي عقوبتهم) ليست متساوية. فبعضهم يحصل على عقوبات اخف من الاخرين.

وكذلك، فان أولئك الذين يطيعون أوامر الله ويفعلون الخير يحصلون على جوائزهم، وهي الجنة، وبدرجات مختلفة في الجنة اعتماداً على قدر طاعتهم وعمل الخير الذي يقومون به. والذين لا يطيعون أوامر الله ويفعلون الشر يعاقبون في جهنم، وبدرجات متفاوتة ايضاً اعتماداً على الشر الذي يفعلوه.

وفي المدرسة فان الأستاذ يعرف الطلاب الذين سيفشلون. ويقدم لهم النصائح لكي يجتهدوا وينجحوا. ولكنهم لايسمعون النصائح ويفشلون. فهل ان الأستاذ هو المسؤول لانه يعرف ان هؤلاء الطلاب سيفشلون؟

لا اعتقد ان احداً منصفاً سيتهم الأستاذ. وبنفس الوقت فان بعض الناس يتهمون الله لانه يعرف من هم الأشرار وهو المسؤول عن إيقاف الشر. بطبيعة الحال ان الله باستطاعته منع الشر وايقافه، ولكننا في هذه الحالة نتحول الى مخلوقات أخرى لا تمتلك إرادة ولا نكون بشراً. ونحن نشاهد ان الناس في مجتمعاتنا يستخدمون ارادتهم وذكاءهم في اتباع القوانين الوضعية. والفرد يعاقب فقط عندما يخالف القانون. وكذلك فان الله يسمح للبشر ان يستخدموا ارادتهم وذكاءهم في الحياة، واتباع أوامره. ويحاكمون بعد الموت.

والغريب في الموضوع ان الناس لايرضون عن شخص لا يتبع قوانين البلد الذي يعيشون فيه ولا يرون ان هذه القوانين تقيد حرياتهم، بل على العكس من ذلك، فهم يرون انها تنظم الحياة وتمنع الجريمة، ولو

سألتهم لقالوا ان الاشخاص الذين ينتهكون القانون يجب معاقبتهم. وبنفس الوقت فانهم يستهجنون قوانين الخالق وبعضهم يعتبرها تقييد لحرياتهم.

والسؤال الان هو: ماهي اوامر الله، وأين نجدها؟

سوف نجيب على هذا السؤال في الفصول القادمة وباستطاعتنا هنا ان نقول ان أوامر الله لابد وانها أرسلت للبشر بطريقة يفهمها البشر. والا فان عدل الله المطلق وحكمته المطلقة ستنتهكان.

٤-١٠ – تفاهة منطق الملحدين

والآن نناقش تساؤلاً آخر مشهوراً إلى حد ما، ويردده الفلاسفة الملحدون لنرى التفاهة التي يتبعونها لإستغباء الناس:

- لما كان الله هو الذي خلق كل شيء،
- ولما كان الشر موجوداً،
- وكذلك لما كان الله هو المطلق،
- فهذا يجعل الله الشر المطلق.

ولتوضيح خطأ هذا الاستنتاج، سنتبع نفس الخطوات أعلاه بعد استبدال كلمة الشر بكلمة الخير، فنقول:

- لما كان الله هو الذي خلق كل شيء،
- ولما كان الخير موجوداً،
- وكذلك لما كان الله هو المطلق،
- فهذا يجعل الله الخير المطلق.

وبذلك يصبح عندنا نفس المنطق ولكنه يعطي نتيجتين متناقضتين، حيث اوصلنا هذا المنطق الى نتيجة مفادها ان الله هو الخير المطلق والشر المطلق بنفس الوقت، وهو تناقض لايقبله العقل. لان الشر المطلق ليس فيه خير، والخير المطلق ليس فيه شر. فاين الخطأ؟

ولما كان المنطق ليس الا وسيلة ويستعمل بنفس الطريقة في كلتا الحالتين، فانه ليس من الصعب ان نرى بان الخطأ هو في الفرضية التي تعتبر ان كلا الخير والشر مطلقان.

٤-١١ – صعوبة فهم حكمة الخالق

يرسل الله الرسل والانبياء وينظر اليهم وهم يتعذبون ويُقتلون على ايدي الكافرين. ويأمرهم بالجهاد والحرب والصبر فيحاربون في سبيله، وهو قادر على نصرهم من اللحظة الأولى، ولكنه لا ينصرهم حتى يبذلوا قصارى جهدهم. وكذلك يعيش الاولياء والمؤمنون عيشة ضنكا ويطلب الله منهم الصبر. ويُسجنون في سجون مرعبة تحت التعذيب، واحياناً يسجنون تحت الأرض، لسنين طويلة وكثير منهم يموتون في السجون في ظروف قاسية جداً. ويُذبح بعضهم ويُعذب حتى الموت. وتقطّع أيديهم وارجلهم وتقلع عيونهم ويُنشرون بالمناشير تحت آلام لا تطاق. ومع ذلك فان الله ينظر اليهم ولا يخلصهم من العذاب الذي هم فيه او يخفف من آلامهم، وهم احباب الله الذين يحبهم. فلماذا كل هذا العذاب والآلام في الدنيا للمؤمنين، بينما يعيش المجرمون الذين يعذبونهم ويقتلونهم في رغد العيش ولا يضع الله حداً لجرائمهم؟

وجاء في الحديث: إن الله إذا أحب عبدًا ابتلاه. والنبي (ص) يقول: أشد الناس ابتلاءً الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل وهم أحباب الله. ويبتلى المرء على قدر دينه، فإن كان في دينه صلابة شدد الله عليه في البلاء. وابتلى الله الأنبياء ببلايا عظيمة، منهم من قتل كيحيى بن زكريا، ومنهم من أوذي، ومنهم من اشتد به المرض وطال كأيوب. وقال رسول الله (ص): ما اوذي نبي مثل ما اوذيت.

ويقال لنا ان الابتلاء يبتلى به أحباب الله ليمحصهم، ويرفع درجاتهم. فاذا كانوا احبابه فانهم اتقياء وهو يعلم ذلك، اليس كذلك؟ فليرفع درجاتهم. لماذا الحاجة الى الابتلاء والتمحيص؟

لابد وان هناك تفسير مقنع لكل هذا. وقد اخبرنا الله بذلك في آيات عديدة كما سنرى. وهذا ما سنقوله بموجب فهمنا المتواضع: اذا كان الموضوع هو علم الله وان الله يعلم، فان ذلك سيقتضي عدم خلق الخلق لان الله يعلم من سيكون من اهل الجنة ومن سيكون من اهل النار. وعندها فان الله يستطيع ان يخلقهم ويضعهم مباشرة حيث يستحقون دون المرور

في هذه الحياة الدنيا والامتحان والتمحيص والعذاب والآلام والقتل.

ولكن في هذه الحالة فان اهل النار سيسألون الله عن السبب في خلقهم ووضعهم في النار، وعدالة الله المطلقة لا تتجاهلهم وستستمع لهم لان تجاهلهم سيكون نقصاً في المطلقية. ثم ما هي الحاجة لخلق الناس ورميهم في جهنم في هذه الحالة؟ فالله ليس بحاجة لذلك. ونستطيع ان نضرب مثلاً ان استاذاً ما يتخذ القرار بالطلاب الناجحين والطلاب الراسبين بدون اجراء الامتحان. فهل هذا مقبول؟ وان لم يكن مقبولاً منا ونحن بشر فكيف يكون مقبولاً من العدل المطلق؟

فما كل هذا اذن؟ ولم؟

نبدأ بالقول ان الله خلق خلقاً كثيراً ومتنوعاً. من هذا الخلق هم البشر. وقد ميز الله البشر بشيئين: العقل والشهوات واعطاه الإرادة. وكرّم الله الانسان وأعطاه مواهب وقابليات تميزه عن كثير مما خلق الله. قال تعالى: " وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا"، سورة الإسراء، الآية ٧٠. لاحظ تأكيد الله بالقول " تَفْضِيلًا " .

وطبعاً لا يكون هناك معنى للإرادة اذا لم توضع موضع التنفيذ، ولا لهذا التفضيل دون سبب. وهنا جاءت الضرورة للامتحان والابتلاء و الفشل والنجاح. وكلما كان الابتلاء اصعب كان النجاح اقوى، والجزاء افضل، كما هي الحال مع الطلاب الذين يجتهدون ويتعبون انفسهم كثيراً فيحصلون على درجات افضل من غيرهم. ومن هنا نرى لماذا يبتلي الله عباده المخلصين والانبياء اكثر من غيرهم. ويفصل عنهم الكافرين الذين سيشاهدون أعمالهم السيئة مقابل اعمال المؤمنين الجيدة، فلا يستطيعون الاعتراض.

قال تعالى: "أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ"، سورة البقرة، الآية ٢١٤.

لاحظ ان الآية تقول: "وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ". ماذا حدث لأولئك المؤمنين وللرسول الذي معهم؟ لقد زلزلوا. أي وضع عصيب كانوا فيه حينما يصفهم الله بانهم زلزلوا؟ ثم يصف الباري تعالى هذا التزلزل بان الرسول والمؤمنين معه نفد صبرهم

حتى بدأوا يتساءلون: متى ينزل نصر الله الذي وعدنا به؟ الرسول نفسه بدأ يتساءل. فأي صعوبة تلك؟ واي تمحيص هذا؟ ولماذا؟ الا يعلم الله انهم سيصبرون؟ نعم ا نه يعلم. اذن لماذا يتركهم يعانون في صعوبة شديدة كهذه وهو قادر على رفع معاناتهم؟ كيف يصبر الله على رؤية احبائه هكذا ولا يرفع معاناته؟

ولكن اذا نصر الله المؤمنين دون ان يبذلوا جهدهم فلماذا يستحقون ثواب الجنة؟

واضح اذن ان الله يريد من البشر ان يبذلوا جهدهم، لان الله يريد من الانسان ايماناً وعملاً، وليس ايماناً فقط. كذلك فان صبر الله على رؤية احبائه يتعذبون ولا يرفع عنهم المعاناة هو صبره المطلق. فصبر الله ليس كصبر البشر. فالله صبر على قوم نوح صبراً طويلاً قبل ان يهلكهم. وصبر صبراً طويلاً على قوم لوط ايضاً قبل ان يهلكهم. ونحن نشاهد الان صبر الله على البشر وظلمهم وجرائمهم منذ ان توفى نبيه (ص) ولحد الآن.

كذلك اذا نصر الله رسوله دون الدخول في الحرب والجهاد، فانه سوف لن يكون قدوة لمن معه ولمن يأتي بعده. فالبشر لا يقبلون ان يكون قائدهم متنعم وبنفس الوقت يأمرهم بالجهاد وحمل الصعوبات والسجون والآلام. ولا يتبعون نبياً يأمرهم بذلك. ولذا فان الله يبتلى الأنبياء ليكونوا أسوة لغيرهم حتى يصبر اتباعهم. كذلك ليكون المؤمنون أسوة لغيرهم حتى يصبر غيرهم ويتأسى بهم.

واذا ادخل الله المؤمنين الجنة دون هذه الاعمال، فيحق للآخرين ان يحتجوا يوم القيامة، وعدل الله المطلق لا يرفض هكذا احتجاج. فالله يرفض الاحتجاج فقط بعد إعطاء خلقه نفس الفرصة ونفس العدالة. فليس من المعقول مثلاً ان يعطي الأستاذ درجات متفاوتة للطلاب بدون امتحان. فالابتلاء هو الامتحان. والأذى يقع على أهل الإيمان والتقوى، كل حسب تقواه وإيمانه. ويبتلي الأنبياء والمؤمنين ليضاعف أجورهم، وتتكامل فضائلهم، ويظهر للناس صبرهم ورضاهم فيقتدون بهم، وليس ذلك نقصاً ولا عذاباً.

قال تعالى: "إِعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ

مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ"، سورة الحديد، الآية ٢٠.

الفصل الخامس: لِمَنْ العبودية؟

٥-١ – العبودية والعبادة

تدعو الأديان السماوية على اختلافها إلى عبادة الله بطرقها المختلفة. وفي هذا الفصل سوف نحاول استكشاف المعاني الخفية لهذا الموضوع الذي أدى سوء فهمه إلى ترك الناس لعبادة الله. ففي أوربا تحولت العبادة في أفضل أشكالها إلى الذهاب إلى الكنيسة يوم الأحد، والحال ليست أفضل من ذلك بالنسبة لمعتنقي الأديان الأخرى.

وكما بينا سابقاً أن الله تعالى ليس بحاجة إلى الأشياء الأخرى لأنها كلها من خلقه، لذا فإنه ليس بحاجة إلى عبادة المخلوقات له، وهو القائل: " وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ "، سورة إبراهيم، الآية ٨.

من ذلك يتضح أنه إذا كان هناك من هو بحاجة إلى العبادة فإنه نحن. ولكن الملحدين يجادلون بالقول ان الذين بحاجة إلى العبادة هم ضعاف العزيمة الذين تساعدهم العبادة على لم شملهم، وأولئك الذين يخافون الموت ويخافون المجهول. أما أقوياء العزيمة والإرادة، والذين يمتلكون الشجاعة والثقافة الكافية والوعي، فإنهم ليسوا بحاجة إلى العبادة لأنهم يستطيعون إدارة حياتهم بدون الحاجة إلى العبادة أو الله لمساعدتهم، وهؤلاء هم الذين يؤمنون أن الله ليس موجوداً ولكنه مفهوم خلقه الانسان لنفسه.

فها هو (برتراند رسل) يقول[35]: "إن الدين، كما أعتقد، بُنيَ أولاً وأساساً على الخوف. وجزئياً فإنه الخوف من المجهول، وجزئياً فإنه الرغبة في الإحساس بأنك تمتلك شيئاً أشبه بالأخ الكبير الذي يقف بجانبك في جميع مشاكلك ونزاعاتك".

وأنا لا أعلم كيف ينطبق كلام (رسل) هذا على أولئك المسيحيين الأوائل في روما الذين كانوا من الشجاعة بمكان بحيث أنهم كانوا يُقذفون إلى الأسود لتأكلهم فيتلقون الموت بهذه الطريقة الوحشية بكل شجاعة ولم يتخلّوا عن دينهم. فلو كان هؤلاء قد اعتنقوا الدين عن خوف لكانوا

35 أنظر المصدر ٣، ص ٢٥

تخلوا عنه بسبب الخوف أيضاً عند مواجهتهم للأسود الضارية. كذلك فإن تاريخ المسلمين زاخر بالتضحيات وحب الشهادة التي تفوق كل التصورات والتي لسنا هنا بصدد ذكرها.

إن الماديين مثل (رسل) فاتهم فهم الموضوع كلياً، وقد يكونون تصوروا أن العبادة هي الذهاب إلى الكنيسة يوم الأحد لسماع موسيقى الأرغون وأغاني تكريم الرب. وقد لا يكون ذلك ذنبهم وحدهم فهؤلاء قد جُبِلوا على ذلك وترعرعوا فيه، وبطبيعة الحال فإن الكنيسة تتحمل القسط الآخر من الذنب لأنها أظهرت للناس العبادة، وطيلة تأريخها، على أنها ليست أكثر من الذهاب إلى الكنيسة.

ولكي نحصل على مفهوم أفضل للعبودية يجب علينا الغوص في مفهوم أعمق لا تشكل العبادة سوى جزء صغير منه، ذلك المفهوم هو العبودية. فالعبيد يعبدون، ولكن ليس بالمفهوم الذي تَعرَّض فيه الأفارقة السود إلى أقسى الظروف وأبشع أنواع الإضطهاد على يد الانسان الأبيض عندما نقلوا إلى الأرض التي كانت حديثة الإكتشاف يومئذ (أمريكا) بأبشع الطرق على متن السفن فمات أكثرهم، ومن نجا ربما كان الأفضل له أن يموت على أن يعيش تلك الحياة التعيسة على يد الانسان الأبيض والتي لم يشهد لها التأريخ مثلاً. ولكننا هنا نتكلم عن العبودية لله. فكل شيء عبد لله. والسؤال الذي نريد أن نجد له جواباً هو: ما معنى ذلك؟ ولكي تتوضح الفكرة سوف نتطرق إلى الأشياء المادية أولاً، ثم إلى الانسان.

٥-٢ – عبودية المادة

تتكون المادة من جسيمات صغيرة ذات وزن خفيف وطاقة صغيرة، وأحياناً شحنة كهربائية. أو على الأقل أنها تبدو كذلك. والخواص التي تمتلكها هذه الجسيمات هي جزء لا يتجزأ من كينونتها، والجسيم يتحول من نوع إلى آخر إذا فقد أحد خواصه او اكتسب خاصية. والمادة عبارة عن تجمع هذه الجسيمات تحت ظروف خاصة. وكما رأينا فإن المادة في حدودها النهائية عبارة عن ظواهر مرتبطة ببعضها بواسطة علاقات وثيقة. وهذه العلاقات ليست عشوائية، لذا فإن هناك تخطيطاً وتنظيماً وهذا معناه وجود السيطرة والقوانين.

وعند الهبوط إلى مستوى الوجود المحسوس الذي يتكون من

الجسيمات وخواصها نجد أن هذه الخواص تعطي كل جسيم سلوكه المعين، وهذا السلوك ثابت لا يتغير. فالجسيم الذي يمتلك شحنة كهربائية من نوع معين ينفر من الجسيمات التي تمتلك شحنات مشابهة لشحنته ولكنه ينجذب لتلك التي تمتلك شحنات معاكسة لشحنته، وهكذا مع بقية الخصائص. وهذا يبين أن الجسيمات مرتبطة مع بعضها البعض بواسطة علاقات صارمة وتحكمها قوانين محددة، والجسيم يمتثل لهذه القوانين بكل صرامة وبصورة عمياء، وليس هناك خيار أمامه بالنسبة للطريق الذي يسلكه. بل أن كل شيء مقرر سلفاً، وهذه الحالة إضافة لخضوعها لقانون السببية في الواقع هي التي جعلت الإكتشافات والإختراعات العلمية ممكنة. وعلى سبيل المثال فانه من المستحيل لجسيمين يمتلكان شحنتين كهربائيتين متشابهتين أن ينجذبا لبعضهما البعض، وكذلك فإنه من المستحيل أن ينفر جسيمان يمتلكان شحنتين مختلفتين عن بعضهما البعض.

المادة إذن تطيع قوانين الفيزياء والكيمياء طاعة عمياء، بدون أي تردد أو تراجع، وهذا ما جعلها على حالتها. فالحديد مثلاً يتكون من أجزاء صغيرة هي ذرة الحديد التي لها شكلها ولها صفاتها لكونها ذرة حديد تتكون من عدد معين من البروتونات والإلكترونات والنيوترونات. ولو تغير هذا العدد تغيراً بسيطاً لتحولت إلى مادة أخرى غير الحديد. كذلك فإن الإلكترون يحمل شحنة معينة أطلق عليها الشحنة السالبة بينما البروتون يحمل شحنة مساوية لشحنة الإلكترون ولكنها معاكسة لها، وأطلق عليها الشحنة الموجبة. ولو أخذنا مثلاً بسيطاً من أمثلة الكيمياء فوضعنا الأوكسجين والهيدروجين معاً وفي ظروف خاصة فإنهما سوف يتحدان لتكوين الماء، وهذا الاتحاد (تحت تلك الظروف) حتمي وسوف يحدث ولا شيء آخر يحدث لهذين العنصرين. ونلاحظ في هذا المثل أن الأوكسجين لا خيار له سوى الإتحاد بالهيدروجين. والهيدروجين لا خيار له سوى الإتحاد بالأوكسجين. وهذه الطاعة الحتمية لهذا القانون الكيمياوي (وهو طاعة لأوامر معينة ومحددة) طاعة عمياء ما دام الأوكسجين أوكسجيناً والهيدروجين هيدروجيناً، وسوف لن يحدث هذا الإتحاد (أي إطاعة تلك الأوامر) في حالة تحول أحد العنصرين، أو كليهما، إلى مواد أخرى. وفي تلك الحالة فإنهما سوف يمتثلان لقوانين وأوامر أخرى بنفس الصرامة.

إن طاعة هذه المواد للقوانين تمثل العبودية الحقة لأنه ليس هناك أي

عصيان لهذه القوانين أو أي إنحراف عنها، وهذه العبودية مبنية كجزء من كينونتها وبنيانها. لذا نرى أنه إذا حدث خلل فإن الأشياء تعيد ترتيب حالتها ووضعها، سواءً شكلاً أو تكويناً، إلى حالة جديدة بموجب القوانين والأوامر لتسير كما يجب عليها أن تسير، ولا يمكنها أن تحيد عن هذا السلوك.

المادة إذن، وكجزء من تكوينها ووجودها تخضع لقوانين معينة خضوعاً تاماً بدون أي مناقشة أو تردد، ولا يمكن لأحد أن يتصور أي معنى للمادة كما نراها لو كانت لا تخضع لهذه القوانين. وقد يقول البعض أن المادة عبارة عن طاقة متجمعة، أو بصورة أساسية أكثر، ظواهر تربطها علاقات وثيقة. وهذا لا يغير من الموضوع شيئاً لأن الطاقة هي الأخرى تتبع قوانين صارمة، كالمجال الكهربائي والمجال المغناطيسي مثلاً، وبإتباعها تلك القوانين تجمعت على شكلها الذي نراه ونسميه المادة، وهو تجمع ليس عشوائياً بطبيعة الحال. كما أن الظواهر ترتبط بواسطة العلاقات الوثيقة التي هي ليست سوى قوانين أخرى أيضاً.

- ما هي القوانين؟
- أنها أوامر.
- ولكن أوامر مَنْ؟
- لابد وأنها أوامر الذي أوجد المادة والطاقة والظواهر، وهو الله تعالى.

فالمادة إذن تطيع أوامر الله تعالى طاعة عمياء، وهذا مطلق الطاعة، ومطلق الطاعة هو العبودية، وهي عبودية المادة لله تعالى. قال تعالى: أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ"، سورة آل عمران، الآية ٨٣. " إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا"، سورة مريم، الآية ٩٣.

فعبودية المادة لله تعالى إذن جزء من وجودها، وفي الحقيقة أنها سبب وجودها، لأنها لا يمكنها البقاء كما هي بدون الإمتثال للقوانين التي تحكمها، بل أن مخالفة القوانين يؤدي بها إلى الفناء، أو التحول من نوع إلى آخر، أو من حالة إلى أخرى.

٥-٣ – عبودية الانسان والحيوان والنبات

يتكون الانسان من مادة تمثل جسمه ومن العقل الذي يمثل التفكير والسلوك. وكما رأينا فإن جزءه الجسمي تحكمه قوانين الفيزياء والكيمياء. فإذا رميته من مرتفع سقط ، وإذا وضعت حامض الكبريتيك على يده فإن الحامض يتفاعل مع العناصر المكونة لجسمه، شأنه في ذلك شأن أي مادة أخرى لأن الجسم يتكون من هذه المواد. وهنا تتجلى عبودية هذا الجزء من الانسان (وهو الجسم) المطلقة لقوانين الطبيعة وأوامرها، وهي أوامر الله تعالى لأنه موجد هذا الكون. وبنفس الطريقة فإن أجسام الحيوانات والنباتات تمتثل لأوامر الخالق تعالى.

أما تفكير الانسان، فإنه بالامكان اعتباره يتكون من نوعين مترابطين من التفكير ومتداخلين مع بعضهما البعض، وهما الغرائز والوعي (أو الارادة). أي أنه، ولغرض الحوار الذي نحن بصدده، سوف ننظر إلى العقل البشري على أنه ينقسم إلى نوعين من العمليات التفكيرية.

- أحدهما سوف نطلق عليه اسم العقل (أو التفكير) الغريزي وهو الذي يختص بالإستجابة والسلوك الغريزي.
- والثاني سوف نطلق عليه اسم العقل (أو التفكير) الارادي وهو الذي يمثل الحدود النفسية للعقل بصورة واضحة، ولكنه بنفس الوقت لا يتناقض مع قوانين علم السيكولوجيا، أو مع حقائق الأشياء.

وبالرغم من أن التفكير يحدث داخل الدماغ بفعل التغيرات الحاصلة في الدماغ من تحول المادة إلى طاقة، وهو بحد ذاته عملية منسقة تحكمها قوانين معينة، فإن السلوك الناتج هو سلوك لا مادي. والتفكير بكلا نَوْعَيْهْ، الغريزي والارادي، هو التنبه لأسباب أو ظواهر معينة والقيام بفعل يلائم متطلبات الظروف (وهذا يتضمن أيضاً الأفعال اللاارادية كالتنفس وضربات القلب وغيرها والتي يتم التنبه إليها تلقائياً بصورة اللاشعور). فإذا أحس الانسان بالعطش فإنه يشرب ولا يأكل، وإذا أحس بالجوع فإنه يأكل ولا يشرب. والسلوك مختلف في الحالتين تبعاً لنوع الأمر.

٥-٤ – عبودية الغرائز

التفكير الغريزي ينصاع لقوانين وأوامر معينة بصورة صارمة. وهو في الحقيقة سلسلة من الأوامر المحددة والتي ليس للانسان سيطرة عليها. فهو لا يستطيع تغييرها أو العمل ضدها. فالإحساس بالعطش مسألة لا يستطيع الانسان تفاديها أو منع نفسه من الاحساس بها. فهو يحس بالعطش كلما احتاج جسمه للماء. وهذا الإحساس بالعطش أمر صارم يطيعه الانسان بواسطة الإحساس به، ثم يطيعه مرة أخرى بواسطة سلوك محدد، وهو الشرب، وليس شيئاً آخر.

وقد يجادل البعض بالقول أنه يستطيع أن يختار عدم الشرب. ولكن في هذه الحالة فإنه يموت وينتهي وجوده كإنسان. ولكي يحافظ على كينونته ووجوده كإنسان فإنه يجب أن يطيع الأمر ويشرب. وهذه الطاعة للأوامر الغريزية تشبه طاعة الجسم للأوامر الفيزيائية والكيميائية تماماً. ويتضح أن التفكير الغريزي يتبع قوانين وأوامر محددة، وهي قوانين الخالق.

والغرائز عند الانسان (وكذلك عند الحيوان والنبات) عبارة عن قوانين وأوامر الغرض منها المحافظة على الحياة الموجودة في الكائن الحي. والانسان لا يملك حيلة إلا الإنصياع إليها، وإذا لم يطعها فإنه سيدفع الثمن على شكل ألم أو بالموت. ومرة أخرى تتجلى العبودية في الانسان لهذه القوانين، وبالتالي لخالقها. وهذا معناه أن الحياة لا يمكن المحافظة عليها، أو إنتاجها، (أي أنها لا يمكن أن توجد) بدون العبودية للخالق. فالعبودية للخالق إذن جزء لا يتجزأ من جوهر الوجود بالنسبة للحياة، ولا يمكنها الوجود إلا بالارتباط بالله تعالى.

٥-٥ – عبودية الفكر الارادي

نأتي الآن إلى التفكير الإرادي، حيث الاختلاف فيه مع التفكير الغريزي هو أنه فيه الخيار. فالانسان مخير أن يفعل كذا أو لا يفعله، أو أن يسلك هذا الطريق أو ذاك وهذا هو التفكير المميّز لنوعية السلوك، وتنصَب عليه جميع القوانين التي تحكم المجتمعات البشرية، والتي تأخذ أحياناً شكل الأعراف الاجتماعية والتي هي قوانين أيضاً، وإذا شذ الانسان عنها فإنه يعاقب من قبل الآخرين. والعقوبة قد تكون الإعدام أو

السجن أو الغرامة أو النبذ من قبل الآخرين، أو ما شابه. ونوع العقوبة يعتمد على نوع الشذوذ ومقداره. فالقتل قد يستغرق بعض الثواني إلا ان عقوبته الإعدام أو السجن المؤبد والسرقة عقابها أقل صرامة.

هنا فإن العقوبة تعتمد على درجة الشذوذ، وهي مشابهة من هذه الناحية لقوانين الفيزياء والكيمياء والقوانين الغريزية. فكلما جاع الانسان لفترة أطول كان الألم أشد، أي أن العقوبة أقسى. وكلما كان الارتفاع الذي يسقط منه أعلى كان الضرر الذي يحدث أكبر، أي ان العقوبة أشد. فالعقاب يعتمد على نوعية المخالفة، أي نوعية الشذوذ وهذا قانون عام ينطبق على الجسم المادي وعلى التفكير بنوعيه الغريزي والإرادي على حد سواء، والفرق يكمن في أن قوانين الجسم والسلوك الغريزي تنفّذ حكمها مباشرة، بينما لا تنفذ القوانين التي تحكم الفكر الإرادي حكمها مباشرة، لأنه في هذه الحالة سوف لن يكون هناك معنى للإختيار والإرادة. فإرجاء تنفيذ الحكم على الشذوذ عن القانون ضروري لوجود الإرادة لأنه بدون ذلك سيكون من المستحيل خروج هذه الميزة (الإرادة) إلى حيز الوجود.

لذا كانت هناك القوانين التي سماها الانسان العدالة. فالمحكمة تنظر في شذوذ السلوك الإرادي بالضبط كالقوانين الفيزيائية أو الغريزية. وبطبيعة الحال فإنه لو لم تكن هناك قوانين تحكم السلوك الإرادي للإنسان لتحوّل المجتمع الانساني إلى شريعة الغاب وفقد إنسانيته وتحول إلى مجتمع حيواني. لذا، وللحفاظ على إنسانية المجتمع يجب اتباع قوانين معينة ومحددة لضبط هذا السلوك. وإطاعة هذه القوانين هي العبودية لموجدها. وفي الواقع إننا أحرار للقيام بالأفعال التي تسمح بها القوانين فقط والتي لا تؤثر على حقوق الآخرين وسعادتهم.

ان هذا الوجود الذي نراه ونحسّ به متوازن وتسري فيه العدالة، ولولا ذلك لاختلّ توازنه. وتنبع عدالته من اتباعه القوانين المحددة له ومن عبوديته المطلقة لهذه القوانين. ومعنى ذلك انه تحكمه قوانين معينة ومترابطة لتنظيم العلاقات المختلفة بين أجزائه، ولا تسمح لهذه الأجزاء الاخلال به لأن أي انحراف لأي شيء هو اعتداء على حقوق الاشياء الأخرى. وهذا ما تقره وترويه لنا علوم الفيزياء والكيمياء والرياضيات. والعدالة تسري في جميع أرجاء الكون، وبضمنها الانسان والاحياء الاخرى لان الكائنات الحية جزء من الكون. وقد رأينا أن قوانينها تبسط نفوذها على جسم الانسان وتفكيره الغريزي بنفس الصرامة. كما رأينا

أن تفكير الانسان الإرادي محكوم بالقوانين أيضاً.

ولما كان الخالق لهذا الكون أعطى الأشياء كلها قوانينها الضرورية التي تحكمها وتمكّنها من الوجود، فانه لا يمكن إدراك أي سبب معقول لترك الانسان تائهاً في هذا الوجود دون إعطائه قوانين لتنظيم حياته ومجتمعه سوية بباقي الأشياء. لأن القول بذلك معناه ان الله ظالم وهذا يناقض عدالة الله المطلقة. لذا فان الخالق لابد وان وضع قوانين للإنسان لإدامة حياته وسعادة مجتمعه، خاصة وقد عرفنا ان الخالق قد وضع القوانين التي تحكم جسم الانسان وغرائزه. فالعدالة لابدّ أن تسري، والقوانين التي وضعها الخالق سلفاً لإعطاء كل شيء وجوده وكينونته يجب أن تُطاع، والتي تؤدي إلى الحفاظ على وجود الأشياء كلها. وانها قابلية الخالق، والخالق فقط، ان يسبب انعدامه، وكما قلنا عند مناقشة العدل الالهي ان الله أعطى كل شيء المقدار الذي يستحقه من الوجود. لذا فانه من غير الممكن أن يُترك الانسان بدون قوانين وتعليمات يتبعها لتنظيم حياته، والا فان الظلم سيسود المجتمع ولن يكون هناك من سبيل لاستعادة العدالة إليه. وإذا حدث ذلك، فانه سيكون الشيء الوحيد الذي انفرد عن العدالة الكونية في هذا الوجود. وفي الواقع ليس هنالك ما يدعو إلى أن تكون الحالة هكذا.

ان اتباع الانسان للقوانين هي العبودية لله الذي خلق الانسان كما خلق الأشياء كلها، وكلها تخضع بالعبودية لله، وهو معنى قوله تعالى: " أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ"، سورة النور، آية ٤١.

وبهذه الطريقة وحدها يمكن أن تسود العدالة التامة والحرية الكاملة لأن قوانين الله تعالى تعطي كل شيء حقه، ولا يمكن لشيء أن يخطو خارج دائرة حقوقه إلى دوائر حقوق الأشياء الأخرى. وبطبيعة الحال، فان الله لا يسلب حقوق المخلوقات لأنه ليس بحاجة لان يفعل ذلك.

ان القوانين التي تحكم المادة والغرائز موجودة في ذات الأشياء وتولد مع الأحياء، ولكن ليس القوانين التي تحكم السلوك الواعي. ولما كان الله مطلق العدالة فانه لا يترك الانسان جاهلاً بهذه القوانين. وقد يسأل البعض لماذا لم يجعل الله هذه القوانين تولد مع الانسان كجزء من خلقه كما هي الحال مع القوانين الأخرى؟ والجواب على ذلك هو انه في هذه الحالة فان المخلوق سوف لن يكون إنساناً، بل سيكون مخلوقاً من نوع آخر. وقد تكون هناك مخلوقات كهذه في أماكن أخرى، كالملائكة على سبيل

المثال، والذين يخلقون وهم يعلمون ما يحتاجون أن يعلموه. وعلى كل حال فان الطريقة الوحيدة لاطلاع الانسان على القوانين يجب أن تكون خلال واسطة يفهمها، أي خلال السمع والبصر. وعقل الانسان لابد وانه مصنوع بحيث يمتلك القابلية على فهم هذه القوانين. والا سوف لن يكون هناك معنى للمشروع بأكمله، لأنه سيعني ان الله ظالم (تعالى عن ذلك)، فهو خلق الانسان على مستوى من الإدراك لا يمتلك معه القابلية على فهم وتطبيق القوانين التي تحافظ على وجوده وسعادته كبقية المخلوقات. وهذا بطبيعة الحال يناقض عدالة الله المطلقة. من ذلك نستنتج ان الانسان لابد وان يكون قد تم اخباره بهذه القوانين بواسطة أحد أفراد مجتمعه، أو مجموعة من الأفراد الذين يستطيع أن يتفاهم معهم، وهو ما تقصده الآية الكريمة: " قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولً"، سورة الاسراء، آية ٩٥.

وهؤلاء الأفراد هم الأنبياء الذين يتم اختيارهم تحت ظروف خاصة لاستلام التعاليم خلال واسطة معينة ثم يخبرونها إلى الآخرين. فالانسان وحده لا يستطيع معرفة هذه القوانين لأنها لا تولد معه كبقية قوانين الفيزياء وقوانين الغريزة، والسبب في ذلك ان هذه القوانين خاصة بإرادة الانسان الحرة، والتي تكون حرة فقط إذا فُسح لها المجال لأن توضع موضع التنفيذ أولاً ثم بعد ذلك يأتي الحكم على صحة استخدامها، بالضبط كما نشاهد كيفية الفصل في قضايا المحاكم بعد اقتراف الجريمة أو حدوث الاختلافات بين الناس.

٥-٦ – ضرورة العبودية

كيف يكون الحديد حديداً ولا شيء سوى الحديد؟ تقول لنا علوم الفيزياء والكيمياء ان الحديد يبقى حديداً باتباعه القوانين وخضوع مكوناته وذراته إلى القوانين التي تجعله حديداً. وهذا معناه انه لو لم تطع مكونات الحديد تلك القوانين لما وُجد الحديد، أي انه سيفنى كحديد (وربما سيصبح شيئاً اخر). اذن فان طاعة الحديد لتلك القوانين ضرورية لوجوده. ولما كانت هذه القوانين هي أوامر الخالق تعالى، فان الحديد موجود كحديد بضرورة طاعته لله، أي ان اتصاله بالله تعالى وعبوديته له ضرورية لوجوده، ولا يمكن أن يوجد في هذا الكون بدون العبودية لله.

وكذلك الحالة مع جميع المخلوقات فانها لا يمكن أن يكتب لها الوجود بدون اتصالها بالله تعالى وعبوديتها له. فالعبودية اذن ضرورية لوجود الأشياء، وبدونها تفنى الأشياء لأنها انما أصبحت على ما هي عليه بسبب طاعتها للقوانين التي تسري فيها لربط أجزائها ببعضها البعض. وهذا هو معنى العبودية للخالق ومعنى ضرورتها، فهي جزء من كينونة الأشياء لأن الأشيـاء ليست أشياء بدونها.

ومن هنا قوله تعالى: "وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا"، سورة آل عمران، الآية ٨٣. وهذه العبودية هي الارتباط بين الأشياء والخالق. وهو المقصود بالقول الحكيم[36]:"فارق الأشياء لا على اختلاف الأماكن، وتمكن منها لا على الممازجة". والذي معناه ان الارتباط بالله هو الطاعة العمياء لقوانينه، وبُعد الأشياء عن الله هو بُعدٌ نوعي (من ناحية نوع الوجود) وليس بعداً من ناحية المسافة.

والناس ليسوا أناساً بدون العبودية لله، لأنه بدون إطاعة قوانين الخلق يتحولون إلى أشياء أخرى تماماً بنفس الطريقة التي يتحول فيها الحديد إلى شيء آخر إذا لم يطع القوانين الفيزيائية (وهي قوانين الخلق بالنسبة له).

- ولكن إلى أي شيء يتحول الانسان عندما يسير بعكس قوانين الخلق؟

انه يهبط إلى مستوى الحيوان. وهذه الحالة مشابهة لحالة المجتمع إذا خالف فيه جميع الأفراد القوانين والأعراف فيتحول إلى فوضى كاملة ويسود الظلم وتنتشر المعاناة والتعاسة وتنفقد الراحة والسعادة. فالأشياء التي تخالف قوانين الخلق تفقد حقها في الوجود لأنها تشذّ عن المسار المرسوم لها. والانسان خلق كإنسان، فإذا فقد حقه في الوجود فانه يفقد حقه في الوجود كإنسان ويتحول إلى وجود من نوع وجود الحيوان. والحيوانات لا تحتاج (بموجب خلقها) إلى الحب والعطف الذي يحتاجه الانسان، ولذا فإذا عاش الانسان عيشة الحيوانات فانه سيعاني من حرمان الحب حرماناً تاماً، وهذا بطبيعة الحال يقوده إلى جميع أنواع المعاناة الأخرى. وهذا هو المقصود بفقدان رحمة الله وعطفه، وهذا هو المقصود بأن الانسان يتحول إلى حيوان. فهو يتحول إلى مخلوق مادي التطلعات

[36] الإمام علي، نهج البلاغة

والسلوك بكل معنى الكلمة مما يؤدّي إلى التدمير التام للمجتمع من خلال الحروب والويلات. وهذا ما حدث للمجتمعات القديمة التي شيدت حضارات ضخمة والتي لم تكن حضارات إلهية عادلة، ولكنها حضارات مادية سارت ضد قوانين الخلق فانتهت بالدمار والفناء. وهذا ما سيحدث للحضارة المادية المعاصرة أيضاً. فسنّة الله هي نفسها: " فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً"، سورة فاطر، الآية ٤٣. فالأشياء التي تشذّ عن مسارها المرسوم لها تتيه في عالم الوجود، ولكن الناس والمفكرين الماديين، خاصة الأوروبيين منهم، في جهل كامل لهذه الحقائق لأنهم بعيدون عن التحليل الصحيح للحوادث والأمور.

فالله خلق الانسان ومعه قوانينه التي تحافظ عليه كما خلق الحديد وقوانينه التي تحافظ عليه، وكما خلق بقية الأشياء وقوانينها. وإذا أراد الانسان أن يصل إلى النهاية الصحيحة المرسومة له من قبل الخالق فعليه إطاعة القوانين. أما إذا اختار عصيان القوانين وانتهى إلى الدمار والفناء فسيكون ذلك ذنبه هو وليس الخالق. فالخالق وضع بنا الرحمة والعطف على بعضنا البعض، وهذه يمكن لها أن تسود بصورة صحيحة إذا أطعنا الأوامر، وهذه الطاعة تؤدّي إلى الحفاظ على حقوق الأفراد وامتيازاتهم بموجب الخلق، والتي هي الحالة الوحيدة الصحيحة، وأي شذوذ عن هذه الحالة الصحيحة تتضمن الظلم بالضرورة لأنها محاولة تبديل المسار الذي قرره الخالق المطلق.

ولتوضيح ما أسلفنا بنظرة أخرى نقول، لما كان الله تعالى قد خلق الأشياء كلها ومنحها حقوقها في الوجود وفي ممارسة امتيازاتها التي تخص وجودها، وكما قلنا فان ممارسة هذه الامتيازات بصورة صحيحة هي في الحقيقة جزء من العبودية للخالق وإطاعة أوامره لأنه لايحدث شيء بدون القوانين، ولذا فان أخذ امتيازات شيء ما معناه حرمان ذلك الشيء من ممارسة حقوقه ومن ممارسة طاعته للخالق، وهذا يطلق عليه الظلم.

لذا فان سبب تحريم الظلم هو لأنه تمرد على قوانين الخلق التي جعلت الكون كما هو، وسلبٌ لحقوق الآخرين والاعتداء عليها وهو أيضاً عدم وضع الشيء في موضعه. وأي عصيان يُقضى عليه للسبب البسيط هو ان العصيان معناه خروج المخلوق عن مساره إلى مسار آخر تحكمه قوانين أخرى مختلفة ليست موضوعة له، ولذا فانها لا تنسجم مع طبيعته. فاذا خضع لتلك القوانين فانه لا محال يتغير إلى شيء آخر

بموجبها. لذا فان الذنب هو ذنب المتمرد لما يمكن أن يحصل له، وليس الخالق.

قال تعالى: " مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ"، سورة ق، الآية ٢٩. فالخلل الذي يحدث في تركيب مادة معينة لا يُسمح له بالوجود وانما يقضى عليه مباشرة بواسطة تغيير هذه المادة إلى نوع آخر أو إلى حالة أخرى. والظلم عصيان لا يسمح به أيضاً ولكن يُقضى عليه بطريقة مختلفة لأن الخروج عن القانون فعل واع كما رأينا. ولما كان الخالق مطلق من جميع النواحي، وهو خالق الأشياء كلها، وهو السبب في وجودها، فانه من العدالة والأخلاق، ومن صحة الأمور أن تعبده المخلوقات وتطيع أوامره. وهذا هو المقصود بالقول الحكيم[37] "إلهي ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنتك ولكنني عرفت أنك أهل للعبادة فعبدك"، وهذا هو معنى العبادة، انها إطاعة أوامر الخالق دائماً وفي كل الأعمال، وليست الذهاب إلى الكنيسة مرة في الأسبوع والاستماع إلى أغاني الأرغون. كما انها ليست بسبب الخوف من المجهول كما يظن (رسل)، ولكنها لأن الله يستحق أن يُعبد ويطاع. وهذا معنى الآية الكريمة: " وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ"، سورة الذاريات، الآية ٥٦.

٥-٧ – الثواب والعقاب بعد الموت

تسود العدالة الكون، ولقد رأينا أن هناك ردعاً وعقوبة لكل شيء يشذ عنها. ولكننا نرى أن الانسان يشذ عن هذه العدالة فيظلم ويعيث في الأرض فساداً ثم يموت دون عقوبة تتفق مع عمله وظلمه.

- فكيف يمكننا أن نفهم ذلك من خلال مفهوم الوجود الذي سردناه؟ هل انه شذوذ عن الإطار العام؟
- إذا كان كذلك، لماذا يكون الاستثناء الوحيد عن القاعدة؟
- عند التمعّن في هذا الموضوع نرى انه ليس هناك مبرر لاستثنائه.
- ولكن إذا كان الظالم يموت بدون عقاب يتلاءم مع ظلمه فمتى وأين العقاب إذن؟

[37] **الإمام علي – نهج البلاغة**

لاشكّ أن نوعية العقاب ووقته، لابد وأن يكونا متناسبين مع نوعية العصيان. فالعقاب يكون أثناء الشذوذ، عدا ما يخص تلك الأفعال التي تتعلق بالإرادة والاختيار، والتي تتأخر العقوبة بالنسبة لها إلى ما بعد إكمال الأفعال المخالفة للقوانين. وعلى سبيل المثال، إذا ألقي القبض على إنسان يقترف جريمة فانه يقدم إلى المحاكمة، وهي عملية تستغرق وقتاً للنظر في موضوع الجريمة ونوعيتها، وتُعقد المحاكمة بعد وقت اقتراف الجريمة والسبب في ذلك هو ان الانسان يجب أن يُعطى الفرصة لإطاعة القوانين أو الشذوذ عنها لأنّه ليس من المعقول معاقبة الأبرياء بدعوى انهم قد يقترفون الجرائم. لذا فان أرجاء إنزال العقوبة ضروري لممارسة الإرادة. وبذلك فان العقوبة تأتي بعد عصيان قانون الخليقة الإلهي. ولذا بالنسبة للإنسان فان العقوبة تأتي بعد إجراء المحاكمة الإلهية، والتي تقام بعد الموت للنظر في الجرائم، أي بعد أن ينهي الانسان مدة إقامته في هذه الحياة الدنيا، لأنها لا تحدث في هذه الحياة. وبهذه الطريقة فقط تكمل مطلقية العدالة الإلهية، والا فانها لن تكون مطلقة.

- وقد يتساءل البعض، انه لما كان الله يعرف ان فرداً من الناس سيعصي الأوامر ويتجه بعكس قوانين الخليقة، لماذا يتركه يفعل ذلك؟
- لماذا يعاقبه بعد الموت وبعد إجراء المحاكمة؟

في الواقع أن السؤال الأول قد تمت الإجابة عليه لأن الانسان يمتلك الإرادة التي لا معنى لها إذا لم يمارسها، سواءً اطاع الله او رفض الطاعة.

أما السؤال الثاني فان إقامة المحاكمة بعد اقتراف الجريمة هي الطريقة الوحيدة التي تنطبق على تعريف العدالة الحقيقية، حيث يُسأل الانسان عما فعل وعن الأسباب التي دعته أن يظلم، ويُعطى فرصة للدفاع عن نفسه.

وكما ان العقوبة ضرورية لإقامة العدل، فان الثواب ضروري لإتمام الهدف التي تُجرى من أجله العقوبة، وهو تحقيق العدالة.

- فإذا كانت العقوبة قد وُضعت لأولئك الذين يعصون الأوامر، فماذا عن أولئك الذين يطيعونها؟

لابد وأن هناك ثواباً على ذلك لأنه بدون الثواب يصبح المشروع ناقصاً ويفقد معناه.

- فما هو الثواب؟

انه البقاء في الوجود والسعادة. فبالنسبة للحديد فانه يبقى حديداً، وبالنسبة للأرض والشمس فانهما لا تصطدمان مع بعضهما البعض بل كل منهما يبقى في مساره. وثواب الغرائز هو الإحساس بالنشوة واللذة. فمن الصعوبة تصور كيفية الحفاظ على الحياة بدون اللذة والألم، أي بدون الثواب والعقاب.

- وماذا عن أفعالنا الإرادية إذن؟

الجواب على ذلك هو أننا بإطاعة الأوامر الإلهية نحافظ على سعادة المجتمع الإنساني، وعلى حقوق وممتلكات الأفراد دون المساس بها. فالذين يقترفون الجرائم يجب معاقبتهم والذين يتبعون الأوامر يجب إثابتهم لأنهم يساهمون في المحافظة على سيادة العدالة في المجتمع، والمحافظة على سعادة وممتلكات الآخرين.

- ومن هنا جاءت عدالة وأحقية الجنة والنار.
- ان وجودهما ضروري لإكمال مشروع الوجود والخلق.

وثواب المطيع يكون في الدنيا والآخرة، سعادة في الدنيا وسعادة في الآخرة، أما عقاب العاصي للأوامر فانه تعاسة في الدنيا وتعاسة في الآخرة. فالمجرم يعيش تعيساً في دنياه مكروهاً من قبل الناس، وله في الآخرة عقاب شديد. ومن هنا جاء قوله تعالى[38]: "فوربّ السماء والأرض انه لحق مثل ما انكم تنطقون".

ونود هنا أن نذكر ما يقوله (برتراند رسل) عن موضوع العقاب. انه يسأل: "أي إله هذا الذي يعاقبنا بهذه القسوة ما بعد الموت بسبب الذنوب التافهة والصغيرة التي نقترفها في هذه الحياة؟"

38 سورة الذاريات – آية ٢٣

وواضح ان (رسل) أساء فهم الموضوع كلياً (او تعمد سوء الفهم لكونه ملحداً)، وفاتت عليه سببية العلاقات بين الأفعال الخاطئة (أو الذنوب) وبين عقابها. فلو اننا حذّرنا انساناً من عدم رمي نفسه من بناء شاهق، ولو انه كان عنيداً ورمى نفسه من أعلى البناء وتكسرت عظامه ومات، فهل يستطيع (رسل) أن يقول أن هذه العقوبة قاسية بالمقارنة مع عناد الشخص !! بالطبع كلا. وبالرغم من ذلك فانه لا يستطيع أن يرى بأن نوعية العقوبة تتناسب مع نوعية الذنب. فقتل إنسان قد لا يستغرق أكثر من فعل الضغط البسيط على زناد المسدس لبضعة ثواني الا ان النتيجة كبيرة وهي إعدام حياة إنسان. فبعض الذوب التي يقترفها الناس ليست صغيرة وليست تافهة كما يدعي رسل. وكذلك الحال مع الثواب، فان نوعيته تتناسب مع مقدار الاتباع الصحيح للقوانين.

الفصل السادس: الرسول (النبوة)

٦-١ – الرسل والانبياء

يعتقد بعض الناس ان الأنبياء كانوا فلاسفة وسياسيين بارعين، بالرغم من ان الأنبياء لم يدعوا انهم فلاسفة او سياسيين مطلقاً. كذلك فان الفلاسفة والسياسيين لم يدعوا يوماً انهم انبياء. والانبياء كانوا دائماً يقولون للناس ان رسالتهم من الله، و يدعون الناس الى عبادة الله تعالى، ولم يطلبوا اجراً على ذلك. بل على العكس من ذلك، فقد عانوا الكثير بسبب دعوتهم. والشيء الآخر الذي يمكن ملاحظته عن الأنبياء هي انهم طبقوا ما يدعون الناس اليه على انفسهم اولاً قبل ان يطلبوا من الناس اتباعهم. فكانوا حقيقيين مع دعوتهم، وكانوا مثالاً يحتذى لرسالاتهم وللسلوك الذي كانوا يعلمونه للناس. وهذا في تناقض حاد مع سلوك وحياة الفلاسفة والسياسيين الذين يعيشون حياة لا علاقة لها بما يقولون.

والنبي ليس منجّماً، او انه شخص يدعي النبوة كما نرى بعض الادعياء فيما مضى او في وقتنا الحاضر.

بالنسبة للمسيحية فان عيسى هو ابن الله، وهذا يجعله الهاً. وهذا بدوره يجعل أصحابه وتلاميذه انبياءً لانهم سمعوا ونشروا كلام عيسى الاله. وهؤلاء الأنبياء (التلاميذ) ليسوا معصومين عن الخطأ. وهذا يفسح المجال للآخرين من الناس ان يدعوا النبوة. والقديس بولص لم ير عيسى شخصياً، وبدلاً من ذلك فانه رأى رؤيا جعلته نبياً في نظر اتباعه. وهذا يوسع دائرة الاشخاص الذين يدعون انهم رأوا رؤيا وانهم انبياء، والذي بدوره ازال ضرورة مشاهدة عيسى شخصياً لكي يكون المدعي نبياً. ولما اصبح الأنبياء اشخاصاً ليسوا معصومين فقد تولدت مشكلة شائكة. وبذلك فان انبياءَ جدداً استمروا بالظهور على مر تاريخ المسيحية والذي عكس تغيرات في الدين المسيحي حتى اختفت كثير من تعاليم الدين الذي دعى له عيسى.

ان النبوة تشريف ونعمة وبركة من الله تعالى يمنحها لمن يختارهم ويميزهم عن بقية الناس. قال تعالى: "واللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ". سورة البقرة، الآية ١٠٥. " اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ"، سورة الحج، الآية ٧٥.

" إِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ"، سورة ص، الآية ٤٧. " إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ"، سورة آل عمران، الآية ٣٣.

والنبوة انتقائية وتفضيل من قبل الله تعالى، وليس بالرؤيا او القوة او الاكراه. ولا تعهد إلا إلى الأفراد المؤهلين الذين يختارهم الله لمهمة النبوة الصعبة. إنها عبء ثقيل ومهمة كبيرة لا يقدر أحد على تحملها إلا من له ثبات. ويقول الله لنبيه محمد (ص): "إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا"، سورة المزمل، الآية ٥.

ويُرسَل الأنبياء في الاوقات التي لايكون هناك سبيل آخر للناس لمعرفة أوامر الله الحقيقية، وكيف يتعاملون مع بعضهم البعض. ولما كان الناس دائماً يقاومون التغيير في معتقداتهم، وخاصة المعتقدات الدينية، فمن الواضح ان المهمة الملقاة على عاتق الأنبياء هي مهمة عظيمة وحمل يحتاج الى اشخاص متميزين لتحمل المشقة المصاحبة لها. والله يكافئ الأنبياء بشكل كبير لتحمل معاناة هداية الناس الى طريق الله.

والله يجعل الأنبياء يحملون رسالاته وتحمل المشقة كأي واحد من البشر لكي يكونوا قدوة للمؤمنين الذين يتبعونه وللذين يأتون بعدهم. ويختلف الأنبياء والرسل عن الحكماء وعن المصلحين والعباقرة من ناحيتين: الأولى استلام الرسالة والوحي من الله، والثانية تواصلهم مع الناس وتحذيرهم لهم.

قال تعالى: " يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ"، سورة النحل، الآية ٢.

وفي آية أخرى يأمر الله تعالى رسوله. "اذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ۙ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ۖ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ"، سورة يونس، الآية ١٥.

وقد ارسل الله نبياً او رسولاً لكل امة ليهديهم الى السبيل القويم. وهؤلاء الانبياء والرسل عاشوا حياتهم بموجب التعاليم التي بشروا بها. وكانوا امثلة حقيقية للتعاليم التي حملوها، وبينوا بصورة عملية ان هذه التعاليم يمكن اتباعها وتطبيقها. وجاهدوا طوال حياتهم لنشر التعاليم. وكان جهادهم وتضحياتهم وتفانيهم وحكمتهم دروساً حقيقية لنا.

٦-٢ – ماهو النبي وما هو الرسول؟

النبي هو شخص يختاره الله سواءً كان يحمل رسالة او يدعو الى تعاليم رسالة سابقة. اما الرسول فانه يحمل رسالة سماوية ومأمور ان يبشر الناس بها. ولذا فان كل رسول هو نبي ولكن ليس كل نبي هو رسول.

قال تعالى: " وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ ۚ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا"، سورة مريم، الآية ٥١. "كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ۚ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ۗ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ"، سورة الببرة، الآية ٢١٣. " وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ"، سورة يونس، الآية ٤٧.

والنبي يثبت للناس احقية وصواب عيشهم، وحياتهم بعد الموت، من خلال التعليمات الدينية والمباديء المبنية على أوامر الله لسعادتهم. والرسول هو نبي وحامل مهمة خاصة تشمل اكمال نداء إذا تم انتهاكه، يكون هناك دمار أو عذاب، او ما شابه.

قال تعالى: " رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا"، سورة النساء، الآية ١٦٥.

وقد ارسل الله تعالى انبياء ورسلاً كثيرين يصل عددهم الى ١٢٤ الف كما تقول بعض الروايات، ولم يذكر القرآن كل أسمائهم. قال تعالى: " وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ"، سورة غافر، الآية ٧٨.

والقرآن يذكر أسماء خمسة وعشرين نبياً ورسولاً، منهم: ادم وادريس ونوح وهود وصالح وذو الكفل وشعيب والياس ويونس وإبراهيم ولوط وإسماعيل واسحاق ويعقوب ويوسف وموسى وهارون وداود وسليمان وزكريا ويحيى وايوب وعيسى ومحمد.

٦-٣ – اولي العزم

واجه الأنبياء ظروفاً مختلفة بسبب اختلاف الزمن واختلاف مجتمعاتهم. وتعاملوا مع الناس باساليب مختلفة. وكان أسلوب التعامل مع الناس ومبادئ الحب والعفو والمغفرة. والهداية التي أرسلها الله تعالى هي نفسها التي اتبعها جميع الأنبياء. ويصف القرآن بعض الانبياء انهم "اولي العزم" لقوة عزمهم وثقل عبئهم. وكانت محنتهم هائلة، وجهادهم شاقًا، وثباتهم على العهد القوي الذي اخذه الله عليهم.

قال تعالى: "وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا"، سورة الأحزاب، الآية ٧.

واولي العزم هم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد. وقد امر الله الرسول محمد (ص) ان يصبر في جهاده كما صبر اولي العزم من قبله. قال تعالى: " فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَاغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ"، سورة الاحقاف، الآية ٣٥.

وكان الرسول محمد (ص) اكثر الأنبياء صبراً والأكثر تضحية. فقد قال: "ما اوذي نبي مثل ما اوذيت". وقد ميزه الله بالثناء والتكريم كما لم يُثنِ على نبي قبله. قال تعالى: " وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ"، سورة القلم، الآية ٤.

٦-٤ – المعجزات

المعجزة هي حادثة تخرق القوانين الطبيعية، او انها غير ممكنة الحدوث في ظروف الحياة الطبيعية والمعارف العامة في زمن الحادثة. والمعجزة تحدث بإذن الله حيث يمنح الله الأنبياء قوى خارقة للطبيعة لجعل المعجزة تحدث، وذلك للبرهنة للناس انهم يقولون الحق، وان ادعاءهم بانهم انبياء ومرسلين من قبل الله هو ادعاء صحيح. ولما كان السبب في رسالات الله هو رحمة الله للبشر، فان المعجزات هي رحمة من الله للناس، لكي:

- يؤمنوا بالانبياء عسى ان يضفي الله رحمته عليهم،

- يؤمنوا بان مايدعيه الأنبياء صحيح، وان الأنبياء يقولون الحق،
- يفرقون بين الأنبياء الحقيقيين ومدعي النبوة الكاذبين الذين يبتغون مغانم دنوية.

ويعتقد بعض الناس ان المعجزات الخارقة للطبيعة هي شعوذة وسحر بإمكانهم ان يتعلموه. وهؤلاء كان مصيرهم الفشل، لان معجزات الأنبياء، وكونها أوامر الله تعالى، لاعلاقة لها بالسحر. لان المعجزة لا تحدث الا بامر الله تعالى. ولايستطيع الأنبياء ان يقوموا بالمعجزات الا باذن الله. فالانبياء، وكونهم بشراً، لايمتلكون القدرة الذاتية لفعل المعجزات. وتعتمد المعجزة على العصر الذي يعيش فيه النبي، والعقلية التي يعيشها الناس والمعارف العامة عند الناس في وقت حدوث المعجزة. ولذا فان المعجزة أكثر دعمًا وموثوقية. وعلى سبيل المثال، فان عصا موسى (ع) تحولت الى حية تأكل ما يقوم به السحرة. وكان عيسى يبريء المرضى ويحيي الوتى باذن الله.

وكانت بعض المعجزات كونية، كانفجار الماء من الصخور لموسى (ع)، والغمام الذي ظلل بني إسرائيل عند عبورهم الصحراء. وبعض المعجزات كانت إخباراً عن الغيب كما كان عيسى (ع) يخبر الناس عما كانوا يأكلون. والمعجزات الخارقة للطبيعة كالنار لم تحرق إبراهيم (ع)، وكانت برداً وسلاماً عليه.

٦-٥ – معجزة النبي محمد (ص) الخالدة

المعجزات التي جاء بها الأنبياء كانت من اجل مساعدتهم مع الناس الذين كانوا يعيشون بينهم. وانتهت المعجزات في وقتها. ومن نافلة القول ان نذكر ان بعض المعجزات التي تذكرها بعض الروايات ونقرأ عنها في الكتب الدينية لم تكن حقيقية. وكان الخيال خصباً عندما يكتب الناس والمؤرخون عن القضايا الدينية.

الا ان الحالة تختلف مع النبي محمد (ص). فبالرغم من انه جاء بالمعجزات في وقته، فانه ايضاً جاء بالمعجزة الأبدية، وهي القرآن الكريم، الذي تحدى بلاغة العرب. ومتوفر لكل باحث يبحث عن الحقيقة في أي زمان ومكان الى يوم الدين.

٦-٦ – لماذا لم يكن بمقدور النبي محمد (ص) ان يكتب القرآن؟

القرآن كتاب يحتوي على اكثر من ٦٠٠ صفحة. ويتكون من ٣٠ جزء، ويغطي مجموعة واسعة من المواضيع. وقد نزل شيئًا فشيئًا على فترة مقدارها ٢٣ سنة. ولو كان النبي محمد (ص) هو الذي كتب القرآن فانه سيواجه المشاكل التالية:

- يجب ان لايكون هناك خطأ فيه،
- يجب ان لايكون فيه تناقض ويجب ان يكون متسقاً على طول فترة زمنية مقدارها ٢٣ سنة، والحفاظ على اتساق الرسالة.
- يجب أن يظل الأسلوب اللغوي وقواعد اللغة كما هي ومتسقة.
- لو كان النبي محمد (ص) هو من كتب القرآن، فان ذلك معناه انه، وفي منتصف الصحراء العربية، وبدون توفر الكتب لديه، وكونه امياً، كان يجب عليه ان يكون ضليعاً في القانون:
  - قوانين الحقوق المدنية.
  - القوانين الجنائية،
  - قوانين الأحوال المدنية،
  - قوانين العمل والملكية،
  - قوانين الضرائب ،
  - قوانين الزواج،
  - قوانين الميراث،
  - الخ.
- وكان يجب عليه ان يعرف التاريخ، ودون ان يكون هناك حضور للمسيحيين في مكة، كان عليه ان يعرف:
  - القصص والاحداث في حياة الأنبياء الذين جاءوا قبله،
  - قصص الأمم الماضية،
  - قوانين الدين اليهودي،
  - وكان يجب ان يعرف هذه القوانين جيداً لكي يناقض بعضها او تقديم معلومات وتفاصيل إضافية غير موجودة في كتبهم،
- وكان يجب عليه ان يعرف كيف يوحد القبائل المتعادية وينشيء امة،
- كيف يشكل حكومة،

- يعرف تفاصيل النظافة والعبادات،
- اختلاق نظام غذائي متكامل،
- وان يعرف:
  - علم النفس،
  - كيفية تربية الأطفال،
  - التحكيم لفض النزاعات بين الناس،
  - توزيع الثروات،
  - التمويل والأعمال.
- وفي الحقول العلمية، كان يجب عليه ان يعرف:
  - علم الأجنة،
  - علم المياه والبحار،
  - علم التضاريس وتحركات الأرض الجيولوجية،
  - تكوين الغيوم،
  - علم الأشعة فوق البنفسجية،
  - معرفة المجرات والاجرام السماوية وحركتها،
  - معرفة الأرض والحيوان والنباتات والجبال والسهول،
  - معرفة النحل،
  - معرفة العقل البشري،
  - الانفجار الكبير،
  - التوسع الحاصل في الكون.
- ولكي يكمل الكتاب، كان يجب عليه:
  - معرفة المستقبل ويكتب عن أشياء تحدث مستقبلاً.
  - وكان عليه ان يرجع بالزمن الى الوراء من اجل ادخال اسمه في الانجيل،
- واذا كان يدعي ان القرآن من الله:
  - فيجب ان لا يكون هناك أي حل غير ممكن.
  - ويجب ان يبقي حياته الشخصية وعواطفه خارج الكتاب،
  - يجب ان لا يعكس الكتاب الأوقات السعيدة، والاوقات غير السعيدة، في حياته،
  - الكتاب لا يجب ان يكون مَرِحاً ومتفائلاً، او حزيناً وكئيباً، كما لو ان انسان كتبه.

- ولكن عندما تقرأ القرآن بأكمله فلا تشعر:
  - متى ماتت زوجته،
  - متى ولد اطفاله، ومتى ماتوا،
  - متى انتصر في حروبه ومتى خسر،

وانه لمن الواضح لكل من يتفحص القرآن انه من غير الممكن لرجل من الصحراء، وقبل اكثر من ١٤٠٠ سنه، ان يكتب كتاباً كالقرآن.

- وماذا لو كانت هناك لجنة من عباقرة، او جمعية سرية، تأخذ على عاتقها تصحيح وتحديث وإعادة كتابة القرآن على مر السنين؟
- وواجبهم ان يتأكدوا من ان الكتاب:
  - يكون، او على الأقل، يظهر على انه صحيح،
  - ليس فيه أخطاء او تناقض،
  - ويستمرون بتحديثه لكي يكون متفقاً مع العلم والعالم المتغير.
- واذا كانت هذه هي الحالة، فلابد وان توجد نسخ أخرى من القرآن.
- وبسبب التعديلات والتحسينات ستكون هناك أخطاء في النسخ القديمة والمعدلة.
- وسيمكن ملاحظة أنماط الكتابة المختلفة وتأثيرات المؤلفين المختلفين.
- الا ان المشكلة في كل ذلك ان هناك قرآن واحد.
- ويبدوا انه لم يكتب من قبل شخص واحد،
- ولم يكتب او يتم تحديثه من قبل لجنة،
- فمن اين اتى اذن؟

ولكن ماذا لو ان شياطين اذكياء تملي على الرجل وتؤثر فيه لكتابة القرآن؟

- عندئذ يكون السؤال، أي نوع من الشياطين يدعو الى:
  - حسن السلوك،
  - عبادة الله،
  - تكريم عيسى،

- مساعدة الفقراء،
- ويحذر من الشيطان؟

- وعند تحليل الاقتران باي طريقة كانت، يصل الفرد الى نتيجة واضحة:
  - لايمكن للجنة ان تكتبه،
  - ولا لشيطان،
  - ولا النبي محمد (ص) نفسه.
- ولما كان من المستحيل على الرسول محمد (ص) ان يكتبه، فان ذلك معناه انه من الله بحق وحقيقة.
- واذا كان القرآن من الله، فان ذلك معناه ان محمداً نبي.
- واذا كان محمد نبياً فيجب الامتثال لرسالته واطاعة أوامره.

الفصل السابع: الله (المرسل)

لقد نظر الغرب الى اله المسلمين منذ البداية على انه كبقية الالهة، وانه يختلف عن اله المسيحيين واليهود. واستخفافاً بالمسلمين يسمونه "آلآ" بتخفيف اللام. وبذلك فانهم يقولون ان محمداً ليس نبياً، ويغلقون الموضوع دون مزيد من التحقيق في حقيقة الإسلام وتعاليمه. هذا بدوره ابعد الإسلام وجعله غريباً عند الاوربيين، وأدى إلى عزل الثروة المعرفية الاسلامية الهائلة والأكثر أهمية من الوصول اليهم. والى وقت قريب لم تترجم الكتب الإسلامية الى اللغات الاوربية وبقيت المكتبات الغربية خالية منها لقرون طويلة. والكتب التي كانت متوفرة عن الاسلام هي الكتب التي كتبت من قبل غير المسلمين. وكانت هذه الكتب تمثل رأي المؤلفين ولم تكن تعكس الإسلام الصحيح بل كانت تحريفاً للإسلام وتعاليمه، وتحتوي على تناقضات واراء غير دقيقة عن الإسلام، سواءً كانوا متعمدين او بسبب عدم الفهم. ولم تتضمن تلك الكتب كل التعاليم الإسلامية، وبدلاً من ذلك يركزون في الغالب على مجالات واهتمامات محددة، والتي يتم شرحها بطرق غريبة خارج سياقها، وبمعزل عن الموضوعات الأخرى ذات الصلة. وكانت النتائج كارثية ضد الاسلام. وعند تتبع أسباب هذا الوضع يقود المرء إلى اكتشاف أجندات سياسية وراءه. والمثير للاهتمام هو كيفية ظهور الاتهامات الباطلة التي لا أساس لها على الإطلاق.

وعلى العكس من الأديان الأخرى التي انزلت الله الى الأرض وجعلته يشبه البشر، فان الإسلام لا يشبّه الله باي شيء. وهو موجود دون الحاجة لاي شيء آخر، وليس بحاجة لاي شيء.

ولو تُرِك الناس بدون المعلومات الخاطئة فانهم سيعرفون وجود الله بالفطرة. ولكن عندما ننظر الى كيفية تربية الناس وتعليمهم في المجتمعات، نرى ان أفكارهم مشوشة عن الموضوع ويمتلكون معتقدات مختلفة يكبرون معها. ويحتاجون الله لكي يخبرهم عنه وعن وجوده بواسطة الأنبياء والرسل.

والقول بان الله لم يرسل الرسل معناه ان الله تركنا نجهل وجوده ونجهل ما يريد منا، وبنفس الوقت يتوقع منا ان نعرف هذه المعلومات.

وواضح ان ذلك ليس من العدل في شيء، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.
وهذا الوضع يشابه وضع شخص ما على سفينة غرقت، وغرق هذا الشخص وفقد الوعي. ثم صحى ووجد نفسه يرقد في غرفة ولا يوجد أي شيء مكتوب في الغرفة عن مكانها. فكيف يعرف اين هو؟ هناك طريقان:

الأول: انه ينتظر الى ان يترك الغرفة. وهذا يشبه الموت بالنسبة لنا عندما نترك الحياة الدنيا.
الثاني: ان يأتي شخص من خارج الغرفة لكي يخبره اين هو. ولكن هذا الرجل يجب ان يبرهن انه صادق وانه ثقة ولا يكذب. وبالنسبة لنا فان ذلك معناه الأنبياء والرسل ومعجزاتهم.

٧-١ – أسماء الله الحسنى

الآيات التالية في القرآن الكريم تصف الله تعالى: " قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، اللَّهُ الصَّمَدُ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ"، سورة الإخلاص. " وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ"، سورة الأعراف، الآية ١٨٠. " اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ"، سورة طه، الآية ٨. " قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا"، سورة الأسراء، الآية ١١٠. " هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ۖ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ، هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ، هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ"، سورة الحشر، الآيات ٢٢- ٢٤.

٧-٢ – الحي القيوم

يخبرنا القرآن بان الله حي وقيّوم، الخالق المالك للكون ولكل خلقه، وان آثار وآيات عظمته وعلمه ومقدرته ظاهرة في جميع جوانب الخلق وفي كل شيء موجود، كالبشر والحيوانات والحشرات والاسماك

والصخور والتراب والمجرات والاجرام السماوية.

وكلما درس الفرد وفكر في اسرار الخلق وَجَدَ عظمة الخالق، ومدى علمه وقدرته اللامحدودتين. وتفتح البحوث العلمية ابواباً تمتد معها أبعاد أفكارنا، والتي تزيد في تعلقنا بالله وبقدسه، وتجذبنا إلى جماله المجيد الهائل. ويخبرنا القرآن الكريم: " وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ، وَفِي أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ"، سورة الذاريات، الآيات ٢١-٢٢. "إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ، الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ، رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ"، سورة آل عمران، الآيات ١٩٠-١٩٢.

٧-٣ – المجد والجمال

يعتقد المسلمون ان الله تعالى خالٍ من كل نقص ومن أي عيب، وانه الكمال بعينه. واي كمال وجمال موجود فان مصدره من جوهره تعالى. قال تعالى: " هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ، هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيم"، سورة الحشر، الآيات ٢٣-٢٤.

٧-٤ – الجوهر اللامتناهي

يؤمن المسلمون ان الله هو الوجود المطلق بكل الابعاد، كالعلم والقدرة وهو الدائم الوجود. ولا يمكن احتواؤه بالزمن والمكان لانه هو الذي اوجدهما. وهو في كل مكان وزمان لانه فوق المكان والزمان. قال تعالى: " وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ"، سورة الزخرف، الآية ٨٤. وهو اقرب الينا منا. قال تعالى: " وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ"، سورة ق، الآية ١٦. " هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ"، سورة الحديد، الآية ٣.

لذا عندما نقرأ في القرآن " الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ"، سورة

طه، الآية ٥، وغيرها من الآيات التي تتكلم عن العرش، فان هذا لايعني المكان. فهذه استعارات للتعبير عن السيادة على كل شيء. واذا اعطينا الله مكاناً فان ذلك معناه اننا وضعناه ضمن حدود، والحدود هي صفات خلقه، وهو لا يشبه خلقه في شيء. قال تعالى: " وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ"، سورة الإخلاص، الآية ٤. " أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ"، سورة فصلت، الآية ٥٤. " وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ"، سورة البروج، الآية ٢٠.

ماهية الله

يؤمن المسلمون انه على الرغم من ان مظاهر الله تتجلى في كل شيء، فان ماهية الله ليست معروفة الا له وليس لأي من خلقه. ولا يمكن لاي من خلقه ان يتصوره. قال تعالى: " أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ". سورة فُصّلت، الآية ٥٤. " وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ". سورة البروج، الآية ٢٠.

غضب الله وحبه ورحمته

يتكلم القرآن عن حب الله وغضبه ورحمته الخ.، فهل ان الله يحب شخصاً اذا كان مؤمناً واذا كفر هذا الشخص فان الله سيكرهه. وبذلك سيتغير شعور الله تجاه ذلك الشخص، وهذا معناه ان التغير يسري على الله، فمرة يحب الشخص ومرة أخرى يبغضه. فكيف يسري التغير على الله وهو خالق التغير؟ واذا كان التغير لايسري على الله فكيف نفسر ذلك؟

بطبيعة الحال ان التغير لا يسري على الله، ولكننا نحن الذين نتغير. ولتفسير ذلك نضرب مثلاً لتقريب فهم الموضوع. تصور ان هناك خيمة كبيرة ولها عدة فصوص (اقسام متصلة بعضها ببعض). فالخيمة وفصوصها لاتتغير ولا تأتي الينا وانما نحن نستطيع ان ندخل الخيمة ونتجول تحت فصوصها. فننتقل من فص لآخر. وهكذا صفات الله فهي ثابتة ونحن ندخل تحت حبه او رحمته بعملنا، او نخرج من رحمته وندخل تحت غضبه بعملنا ايضاً.

مقارنات

يؤمن المسلمون انه ليس من الصحيح او الممكن محاولة الحصول على معرفة ماهية الله. وكذلك من الخطأ التَيَهان في المقارنات، واعتبار الله شبيه بشيء من خلقه.

٧-٥ – ليس لله جسم مادي ولا يمكن ان تراه عين

يؤمن المسلمون ان الله لايمكن رؤيته بالعين لان العين لاترى الا الاجسام المادية التي لها اشكال والوان واتجاهات الخ. وهذه خصائص المخلوقات. والاعتقاد بإمكان رؤية الله رؤية عين شرك وكفر. قال تعالى: "لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ۖ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ"، سورة الانعام، الآية ١٠٣. ولذلك عندما سأل بنو إسرائيل موسى ان يريهم الله، وسأل موسى الله، كان الجواب: "ولَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ"، سورة الأعراف، الآية ١٤٣.

والمسلمون يؤمنون ان الله يرى ويعرف بالعقل والقلب، لا بالعين. وان الله اعطى الانسان عقلاً يستطيع معرفة الله فيما لو استعمل استعمالاً صحيحاً.

٧-٦ – التوحيد هو أساس الاسلام

بني الإسلام على التوحيد، والتوحيد يقود لمعرفة الله. والتوحيد هو أساس الدين واهم المباديء الإسلامية، وهو روح الإسلام والاساس الذي تستند عليه كل الأفكار والمعتقدات الإسلامية، وباقي الأصول والفروع. والتوحيد يتضمن وحدانية الله ووحدانية صفاته وافعاله. ويتبع ذلك وحدة الرسل والتعاليم والقوانين والكتب المقدسة. ويؤكد القرآن مرارا وتكرارا ان الشرك ذنب لايغتفر. قال تعالى: " إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا"، سورة النساء، الآية ٤٨. " وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ"، سورة الزمر، الآية ٦٥.

٧-٧ – فروع **التوحيد**

للتوحيد فروع عديدة، أهمها الأربعة التالية:

١ – وحدة الجوهر

وهذا معناه ان الله جوهر واحد فرد لاينقسم وليس كمثله شيء.

٢ – وحدة الصفات

هذا معناه ان العلم والقدرة وديمومة الوجود... الخ. كلها هي نفس جوهر الله وليس صفات إضافية له.

وبعكس ذلك فان صفات المخلوقات تختلف عن اجسامهم وتختلف من مخلوق لآخر. وهذه نقطة حرجة ويجب التفكير فيها بعناية فائقة.

٣ – وحدة الأفعال

وهذا معناه ان أسباب أي فعل او حركة او تأثير في الوجود هي مشيئة الله. أي ان كل شيء يعتمد عليه. قال تعالى: "اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ"، سورة الزمر، الآية ٦٢. "لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ"، سورة الشورى، الآية ١٢.

وليس هنالك مؤثر في الوجود الا الله. ولكن ذلك لا يعني اننا مجبرون في كل شيء، وان كل ما يحدث هو حتمي. وعلى سبيل المثال فان مشيئة الله انه اعطانا الإرادة الحرة في قراراتنا. قال تعالى: " إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا"، سورة الانسان، الآية ٣. " وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ"، سورة النجم، الآية ٣٩.

وآيات كهذه تبين بوضوح ان الانسان يمتلك إرادة حرة، وقد نشير إلى ان أعمال الإنسان وأفعاله تحدث بقدرة الله دون اختزال مسؤولية الانسان عنها.

وإرادة الله تقتضي ان نفعل افعالنا بكامل قدرتنا وارادتنا التي منحها الله لنا، وبذلك فانه يهدينا ويقودنا نحو التكامل الإنساني، والذي يمكن تحقيقه من خلال الإرادة الحرة وطاعة اوامر الله. لان أي شيء يقوم على السببية القسرية ليس علامة على الخير او الشر. ولو لم تكن لدينا إرادة حرة، فان بعثات الأنبياء تكون غير مجدية، ويصبح لا معنى لتنزيل الكتب السماوية، وليس من العدل ان يكون هناك ثواب وعقاب. وهذا مانفهمه من التعاليم والاوامر الإسلامية، فلا حرية مطلقة ولا اجبار، ولكنه امر بينهما، وكما قال الامام جعفر الصادق: "لاجبر ولاتفويض

ولكن امر بين امرين". فافعالنا بمشيئة الله بمعنى انه هو الذي يعطينا القدرة على ان نفعل، ولكنها مسؤوليتنا بمعنى ان عين الأفعال التي نفعلها هي مسؤوليتنا لأننا نفعلها بارادتنا الحرة. ونحن مسؤولون عن كيفية استعمال هذه الإرادة الحرة.

٤ – وحدة العبادة

يخبرنا الإسلام ان الله وحده يستحق ان يعبد. ولا تجوز عبادة غيره. وهذا من فروع التوحيد المهمة. وجميع الأنبياء والرسل جاءوا لهذا الغرض. قال تعالى: "وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ"، سورة البينة، الآية ٥.

وللسير في طريق الكمال يحتاج الانسان ان يغوص الى أعماق التوحيد والاتجاه الى حب الله وحده الرحمن الرحيم والى التفكير بعظمته وعظمة خلقه. ولا يجوز تقديم الفرد رأيه على أوامر الله، فذلك شرك وعبادة الصنم. وقد كفر ابليس وخرج من رحمة الله عندما قدم رأيه على أوامر الله. لا حظ ان ابليس لم ينكر وجود الله ومع ذلك اعتبره الله كافراً . قال تعالى: " إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ"، سورة الفاتحة، الآية ٥. " لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ"، سورة المائدة، الآية ١٢٠.

وفروع التوحيد لا تقتصر على الفروع الاربعة أعلاه. فهناك بعض الفروع التي لاتقل اهمية، منها وحدة السيادة حيث ان الله هو القدرة والسيادة العليا على كل شيء. قال تعالى: " ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ"، سورة المائدة، آية ٤٤. "وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ"، سورة المائدة، آية ٤٥.

٥ – المعجزات

ان وحدة الأفعال تضع التأكيد على حقيقة ان المعجزات الكبيرة التي حدثت كانت بقدرة الله على ايدي الأنبياء والرسل. قال تعالى عن عيسى: " ذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ۖ وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ

بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ"، سورة المائدة، الآية ١١٠.

وعندما أراد النبي سليمان نقل عرش بلقيس الى مجلسه لتغييره الى أسس الدين والايمان، فان عفريتاً من الجن، وكذلك وزيره، تطوعا لجلب العرش. قال تعالى: " قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ، قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ، فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ، وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ"، سورة النمل، الآيات ٤٠ – ٤٢.

٦ – الملائكة

اقتضت حكمة الله ان يتم تعيين الملائكة لأداء واجبات مختلفة، بعضها نقل اوامر الله الى الأنبياء والرسل من خلال الإلهام. كما ان بعض الملائكة مكلفة بتسجيل اعمال البشر. وبعضم يأخذون أرواح الناس عند الموت، وبعضهم يساعد المؤمنين الذين يتمسكون بمبادئهم. وبعضهم يساعد المؤمنين في حروبهم المقدسة. وبعضهم يعاقب الذين يتجاوزون الحدود. وهم يقومون بهذه المهمات باذن الله وبامره لا لحاجة عند الله للملائكة. وهذه الإنجازات لا تتعارض مع الايمان بالتوحيد. وهذا يبين ايضاً ان شفاعة الأنبياء والشهداء في حق المذنبين لا يتعارض مع التوحيد لانها تكون باذن الله. قال تعالى: " نَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ"، سورة يونس، الآية ٣. "مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ"، سورة البقرة، الآية ٢٥٥.

المصادر

BIBLIOGRAPHY

1. طالب هاشم حسين، "نظرية التطور الداروني‌ة، نقض العلم الزائف"، تحت النشر
2. Goodman, Jeffery, “Genesis Mystery”, Times Books, 1983.
3. Russell, Bertrand, “History of Western Philosophy”, Simon and Schuster, Inc., 1945
4. Russell, Bertrand, “Why I am not a Christian”, Unwin Books, 1985.
5. Russell, Bertrand, “The Analysis of Mind”, George Allen & Unwin Ltd., 1971.
6. Mohammad Baqer Al-Sadr, “Our Philosophy”, Dar Al-Taaruf for Publishing, Beirut, 1982.
7. Bertrand Russell, “Mysticism and Logic”, George Allen and Unwin 1970 Print.
8. Shirrazi, Sadruddin, “The Rising Wisdom in the Four Journeys of the Mind”, Dar Ihia’a Alturath Alarabi, Beirut, 1981.

يتناول هذا الكتاب في البحث مواضيع طالما طرحها المفكرون على مر التاريخ. وتحوم حولها الشكوك وعدم الفهم، سواءً عن عمد او عن جهل. وهي مواضيع ليست سهلة الفهم. من هذه المواضي :

- وجود الله
- الروح والنفس
- حاجة البشر الى كتاب مقدس
- جهل البشر لحكمة الخالق
- العدل الإلهي
- معنى العبودية لله